إيدوتنسي

خير الناس أنفعهم للناس

© دار خيال للنشر والترجمة
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج -الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك: 978-9931-738-26-8
الإيداع القانوني: سبتمبر 2023.

شرف الدين كتفي

إيدوتنسي

خير الناس أنفعهم للناس

"فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"

رواية

"إلى الذين وُصِمُوا بأنْ لا طموح لهم"

الفصل الأول

" الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"

علي بن أبي طالب

إذن، هذا هو الموت.

لا يبدو مريعا كما أخبرونا من قبل، لا أعلم على وجه الخصوص ما الذي جعلهم يتصورونه كذلك؟ حقيقةً لو كنت أعلمُ مسبقًا أنه سيكون على هاته الشاكلة لكانت أمنيتي بالموت هي أكثر أمنيات حياتي طلبا للتحقيق، ولربما أمنيات كل من عاش في ذلك العالم! لِمَ أراني أقول "ذلك العالم" وأنا أشعرُ بسرور باطني، ما ليَ أتبرأ منه؟ على كلٍّ لستُ أذكرُ تحديدا كم لبثت هنالك، لكنني كمن تخلص من عبئ ثقيل وانسلخَ من انتماءٍ زائف؛ ينتابني إحساسٌ غريبٌ بالحرية.

حسنا، أنا لن أستبق الأمر، ربما هو ليس كذلك بالنسبة للآخرين: الذي أستطيع فعلهُ هو إيجاد أحدٍ ما كيْ أسأله عمَّا اختبره أثناءَ موته، ربما هي ليست نفس الآحاسيس للجميع، لكنْ عن نفسي أنا فالشعور كان لطيفاً للغاية. أذكرُ أنني اتَّبعتُ نورًا ساطعًا، كان يخترقُ بسلاسة سحبًا بيضاء بَدتْ للوهلة الأولى خفيفةَ الوزن، لم يكن هنالك أيُّ ملائكة في استقبالي، من يدري؟ لربما سيفعلون فيما بعد، هل يا تُراهم هم الذين كنت أقصدهم حين قلتُ "أنَّ الموت ليس مريعا كما أخبرونا من قبل"؟ من هم الذين أخبرونا؟ ولِمَ هُمْ بصيغة الجمع؟ لا أذكرُ الكثير. لكنني إلى حد هاته اللحظة معجبٌ بهاته التجربة؛ لم أشعر يوما بكذا سلامٍ داخلي، بأنني حيٌّ أكثر مما أنا عليه حاليا؛ ربما الموت هو السلام

الحقيقي والحياة الحقيقية، وما كنَّا نحياه آنذاك كان مجردَّ موتٍ مؤقت واستعدادًا لحياة أزلية.

لكن أينَ أنا الآن؟ هل أنا في الجنة أم أنني فقط في مرحلة "ما بعد الموت"؟ أظن أنَّ الجنة مكانٌ أجملُ من هذا بكثير، مع أنَّ هذا لا بأس به حقيقة، إنّه أفضل من أماكن عديدة عرفتها في ذاك العالم، ماذا كانوا يسمونه يا ترى؟ ذاك العالم؟ آه، أ لهذا الحد أنا سعيد بابتعادي عنه؟ إلى درجة أن لا يحضُرُني اسمه حتى؟!

إذن، هل يوجد حساب؟ لا أذكر أنني قد حوسبتُ بعد، لقد استيقظتُ لتوي. لكنني أعلم بطريقة ما أو بأخرى أنَّ ذلكَ سيتمُّ عاجلا أم آجلا. أنتَ ببساطة لن تُفنيَ حياتك كلها في ممارسة أعمالَ صالحة ثم لا تجد جزاءً، أو تُغدِقَ على العالم بأعمال سيئة ولن ينجرَّ عن ذلك أيُّ عقاب؛ بما أنه قد تأكَّد رسميا وجودُ حياةٍ ما بعد الموت، حتما سيكون هنالك تقريرٌ في مكانٍ ما أو مُحصِّلة تمثل عُصارة تجاربك الحياتية.

على كلٍّ أنا لست في عجلة من أمري كي أُحاسَبْ، صحيح أنني أود لو أرى بعضا من الملائكة في أقرب وقت، فالبعض من الأحاديث في حياتي السابقة (حياتي السابقة؟ يبدو أنني قد بدأت الإعتياد فورا على هاته الحياة) كانت تدور حول وجود الملائكة من عدمها، ووجود عالم غيبي يختلف عن عالمنا المحسوس ذاك.

ولربما كنت أحدِّثُ نفسي أحيانا بأنّه حين يحينُ أجلي وتَصِلُ ورقتي، لعلّه يكون بمقدوري أنْ أُبصر الخالق نفسه، لم أقُلْ هذا لأي أحدٍ وقتها مخافة أن يتمَّ وصمي بالجنون، أمَّا والآن فأنا أشعر بالحرية في التفكير فيما شئت، دون أيّة قيود؛ نعم، أنا سأرى الخالق إذا سمح، أرجو أن أكون قادرا على ذلك، لا أعلم. أنا لن أستبق الأحداث، رغم أنه يبدو أنَّ التسرع لايزال صفة من صفاتي، والإرتباك كذلك، إنَّ كتلة عظيمة من الأفكار تجول خاطري حاليا تمنعني من ترتيبها بالشكل الذي يليق، عليَّ أنْ أُنظمها حتى يسهل عليَّ التفكير والاستنتاج بشكل صحيح، لأنني إنْ أكملتُ على هاته الشاكلة سينال مني الإرتباك مناله.

انتظر لحظة، لقد انشغلتُ بأمور متفرقة حتى نسيت المفترضُ أن يتبادر إلى ذهني في أول وهلة استيقظتُ بها! يا تُراني كيف أبدو؟! هل أنا على هيئتي التي مِتُّ عليها؟ أم أنني على الهيئة الفُضلى التي كان يُجدَرُ بي بلوغها؟ أو هيئةٌ تمنيتُ أن أكونُ فيها في ذروة كمالي الجسمي، ربما أمتلكُ فيها عضلاتٍ مفتولة وجسما متناسق الأطراف، من يدري؟ أنا لا أذكر الكثير عما كنتُ عليه ربما كنتُ أحوز تلك الهيئة الفضلى أساسا، عليَّ أن أتفحص جسدي لأتحقق ذلك.

يا للهول؟ ما هذا؟! لا أصدق الذي أرى! أو الذي لا أراه؟! هل أصبحتُ خاليا؟! فارغا وخاويا؟ انتظر قليلا... إنني لا أمتلك أيَّ شيء على الإطلاق! لا شيء! لا أمتلك لا أرجلا ولا جذعًا ولا ذراعين فضلا عن امتلاك عضلات! لا أحوز حتى على يدينِ كي أتفحص بهما إن كان لِيَ رأسٌ أم لا! وكأنني أحملقُ في الفراغ من خلالي! أريدُ أن أُبصرَ بطني لكنني أرى الأرضية الجرداء فقط!

الذي أعنيه أنني أعلمُ يقينا كوني كيانًا موجودًا، لكنني لست متجسدا، لا جسد لي! ما هذا؟ إنَّ الهلعَ يكتنفني. ما الذي سأفعله الآن؟ كيف سيراني الآخرون؟ هذا إن كان للآخرين وجودٌ أصلا! ماذا عن عيناي؟ كيف أمكنني إذن رؤية كل هذا الذي يحيط بي؟ رؤية هذا الطريق؟ هذا الطريق الشاسع عرضا والممتد طولا على مدِّ البصر (أيُّ بصر أقصد؟). هذا الطريق ذو التربة الوردية الكريستالية والمحفوف بهاته الأشجار الطويلة ناصعةُ البياض ذوات الأوراق الزرقاءٌ سداسية الشكل، تماما كشكل جزيئة ثلجِ ذلك العالم. كيف أمكنني رؤية هذا كلِّه بهاته الدقة إن كنتُ لا أملك عينان؟ إنني أشعر أنّ لِي حيزًّا ما، أدركُ أنني لستُ جسدا ولكنني بطريقة ما متحيز؛ هل يمكنُ أن يكون التفسير المتوفر الوحيدُ أنني أصبحت روحاً بحتة؟ لا أرى باستطاعتي التفكير في تفسير آخر، ما الداعي إذن إلى زوال أجسادنا؟ قد أستنتجُ أنها لم تكن مهمة بذاك القدر الذي كنا نظنها أنها كذلك، ربما كانت مجرد

حاويات لما هو أبقى. إذن هذا هو كل ما أُستُبقِيَ من كياني من ذاك العالم؟ (لا أذكر حتى ما اسمه، لهذا لا أنفكُّ عن مناداته ب"ذلك العالم"، كما أنني أشعر بالغبطة المتجددة والمتكررة في كل مرة أتذكر فيها أنني أتناسى اسمه باستمرار).

عليّ أن أهدأ قليلا كي يسكن روعي، سألبثُ بعض الوقت دون فعل أي شيء إلى أن أستحضرَ الهدوء، لن يمكنني التفكير بشكل سوي إن أنا بقيتُ هلوعا هكذا. عليَّ أخذُ أنفاس طويلة؛ حسنا أنا لا أملك أنفا ورئتين لأفعل ذلك، يجب أن أتأقلم مع مسألة عدم إمتلاكي لجسد، وكلما كان ذلك أسرع كلما كان أفضل.

في الحقيقة أنا لم أنتظر الكثير حتى أهدأ، لأنني لحظة محاولتي أخذ تلك الأنفاس المزعومة، كانت هنالك من الكفاية لتشد انتباهي إلى شعور آخر؛ الكثير من الأفكار المتدفقة، مثلا فكرُة أنَّ المشاعر هي نفسها، هنا أو هنالك. إلى حدِّ اللحظة ومنذ قدومي إلى حيث أنا قد شعرتُ بالغبطة والغرابة والحرية والفضول والإرتباك والهلع والدهشة وبالقريب السابق كنتُ أحاول جاهدا أنْ أُهدِّئَ من روعي. السؤال الذي ينتابني؛ بما أنَّ الأحاسيس هي نفسها، هل سأشعر بالغضب؟ بالحزن؟ بتلك المشاعر التي ظننتُ أنني لن أصادفها مرة أخرى إن أنا فارقتُ تلك الحياة السابقة؟ أقصد خصوصا السلبية منها. ماذا عن الأحاسيس الإيجابية؟ عن الحب مثلا؟ هل سأشعر به أثناء تجربتي هاته؟ يا له من سؤال بلاغي

غبي، طبعا سأشعر بالحب! لا أعلمُ إذا كان نفس الأمر ينطبق على الغضب والحزن، لكن لن يكون ممكنا أن تبقى كل الأحاسيس حاضرة هنا إلا إحساسُ الحب، كل شيء سيكون بدون معنى إذن.

أذكر أنني كنت أفترضُ من قبلُ أنَّ المغزى من الحياة هو الحب (أقصد بالحياة ذاك الموت المؤقت)، وأنك كلما ابتعدتَ عن الحب ابتعدتَ عن ذاتك أكثر، شعرتُ دوما أنَّ من لم يحبّْ لم يختبر أجمل ما في تلك الحياة. هاته كانت الفرضية الأولى، أما عن الفرضية الأخرى والتي شغلتني دوما إلى درجة أنني لم أنسها رُغمَ موتي ولازلت أذكرها لاستحواذها التام عليَّ أنذاك، أنَّ المادة السوداء المظلمة التي كانت تُشكِّلُ معظم كينونات ذاك العالم والتي حاول أُنَاسُه اكتشاف ماهيتها باستمرار مكثف هي عبارة عن حبٍّ خالص، أعني أنَّ تلك المادة بذاتها هي خلاصة حبُّ الخالق لكونه! جاذبيتها الغريبة، غموضها ذلك، التطلع إلى استكشافها باستمرار، قوتها المرعبة، أليست هاته صفات الحب؟ لقد كان كل شيء قائما بالحب وعليه ولأجله، طبيعيٌّ أن يكون هو الغالب على تكوينه وتشكيله وغالبيته، فيزيائيا أم كيميائيا، رياضيا أم علميا أليس كذلك؟ طبيعيٌّ أيضا أن يكون هذا الشعور موجودا هنا، لا غرابة في الأمر أظن.

لكن بالحديث عن الحب، ماذا سأحب هنا؟ أو من سأحب أصلا؟ أنا لم ألتق أي أحدٍ بعد. يمكنُ أنْ يحدثَ وأنْ أُحببَ هذا المكان رُغْمَ أنَّه يبدو موحشا بعض الشيء، ليسَ موحشا بشكل سلبي، لكن ستشعر فيه بالوحدة حتما، كونك الكائن الوحيد في هذا الفضاء الواسع، لكنني لا أخفي إعجابي بتكوينه الفريد؛ يستحق الوقوع في الحب معه.

ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أنا أردد باستمرار "الآن، الآن، الآن..." هل لا يوجد زمنٌ هنا إلا الآن؟ هل كلُّ ما يوجد هو اللحظة الراهنة؟ الحاضر وفقط؟ لا ماضٍ ولا مستقبل؟ لأنني لا أتذكر الشيء الكثير عن ما عشته، كما لا أشعر بذاك القلق الدنيوي مما هو آتٍ، آه! لقد كان يسمى دنيا!! لقد تذكرتُ اسمَ ذاك العالم لتوي! ما هذا التلميح الغامض المفاجئ؟ على حين غرة ورد في اسمه كفكرة عابرة قادمة من بعدٍ آخر بعيد، عن كون ذاك العالم كان يسمى دنيا! لكن لِمَ أشعرُ أنه عليَّ الاستمرارُ بمناداته "ذلك العالم"؟ كأنني سأكون أكثر ارتياحا نسبيا إن أنا فعلتُ ذلك بدلا عن ذكره بإسمه الحقيقي، يجعلني بطريقة ما أكثر تحررا منه، لذا أظنني سأُبقي الحال هكذا.

حاليا كياني مطمئنٌّ بينما لا أفعل شيئا، لا أوامر تُطاعُ أنا بحاجة للانصياع لها، ولا طلبات تُلبَّى تنتظرني كي أحرص على تحقيقها. أنا فقط أكتشف المكان، لست على عجلة من أمري، مع أنَّ لي

بعضُ الدافع الغامض الغير مفهوم لسلوك دربِ هذا الطريق؛ يبدو طويلا للغاية لبلوغ منتهاه ولكن لا بأس بذلك، كما قلت سابقا، لستُ على عجلة من أمري، سأسلكه وأبلغ نهايته عاجلا أم آجلا.

إذن توجد أشجار هنا؟ لكن هل هي نفسها تمرّ بدورة الحياة والموت أيضا؟ مثلها مثل أشجار ذلك العالم؟ ظنِّي أنه لن يحدث ذلك، أجزم أنه بما أنَّ هاته هي الحياة الخالدة فلا موتَ يوجد إذن، وبالتالي لن يكون هنالك أيُّ تساقطٍ لأية أوراق ولا انكسارَ لأية أغصان. آه صحيح، على ذكر تساقط الأوراق، هل هنالك وجود لما كان يسمى خريفا؟ أو باقي الفصول من صيف وشتاء وربيع؟ أم أنَّ الجو هنا يقتصر فقط على كونه لطيفا ومشمسا ومعتدلا مثلما هو حاليا؛ لا ريح توجد ولا زمهرير، من يدري، ربما سيتبدل الحال، أنا عن نفسي أوده أن يبقى لطيفا على هاته الشاكلة.

توجدُ سماء متسعة بهية، يمنحها انعكاس ضوء تلك الشمس معتدلة السطوع لونا فيروزيا؛ سُحبها منتفخة بلون ذهبي فاتح تبدو كوسائد صوفٍ خشنة الملمس. إنَّ أكثر ما شدَّ انتباهي في هذا المكان هو ألوانه المبهجة، لم يحدث وأن صادفتُ ألوانا متسقة ومتناسقة بهذا الشكل قط، وكأنني أبصر كل لون على حِدى لأول مرة. ألاحظ أيضا أنني لا أزال أحوز على قدرة وصف الطبيعة

المحيطة بي، ما يعني أنَّ هاته الميزة لم تؤخذ مني كما أُخِذَتْ ذكرياتي، لكن لِمَ يا ترى؟

أنا لا أعرف ماهية هذا العالم بعد، ولكنني بغموض مثير للحيرة أشعر أنني قد مررت به سابقا، كأنني أعرفه من قبل أن آتيَ "هاته المرة". وجدت نفسي أعرف أنَّ مكان الشمس يكمنُ في أقصى النهاية الغربية لهذا الطريق. لكن لِمَ أُصرّ على تسميته بالطريق؟ إنه جسر، لا أعرف كيف أنَّ ليَ علمٌ بهذا ولكنه جسر؛ واضحٌ جدا وطبيعيٌّ للعيان أن يكون كذلك بما أنه منطقة عبور فقط إلى مكان آخر، لكنني في نفس الآن أستغربُ يقيني المفرط هذا، لِمَ أنا متأكد حيال أمور معينة، لكن لست كذلك حول أخرى؟ كما قلتُ منذ لحظة، كأنني أستطلعُ مكانا أعرفه جيدا، غريب.

الذي أستطيع فعلهُ لكي أتأكد كونَ أنَّ الطريق جسرٌ أم لا هو أنْ أتفقد حاشيته، إن كان لها ما يشبه الحاجز الذي يمنعك عن الاجتياز فهو جسر حتما، وإن لم تكن كذلك فهي مجرد طريق فقط. تبدو الحاشية بعيدة بعض الشيء، لكن لا بأس، أنا أملك كل الوقت الكافي لإشباع فضولي، أنا لن أسرع إلى نهاية الجسر

(أو الطريق) فقط لكي أعلم ما مصيري، رُغمَ أنني أظنُّ أنَّ الأخير مرتبط جدا بنهايته، ريثما أبلغها ستتبيّنُ طبيعة حياتي الخالدة.

أمرٌ آخر يثير استغرابي، لم سرعتي محدودة؟ ما أودُّه هو أن أبلغ الحاشية كي أرى الذي يليها وأتأكد إذا ما كانت جانبا من جانبي الجسر أو شيئا آخر، لكنني بشكل ما بطيء، صحيح أنني لست على عجلة من أمري ولكنَّ سرعتي الحالية هي أقلُّ من العادية. كذلك رُغم أنني بدون أي أطراف وأنني مجرد روح هائمة فالطبيعي أنْ أنتقل دونَ سرعة محددة، بما أنّهُ ليس علي بذل أي حركات ميكانيكية معينة، ولا وجود لأي قوى جذب تمنعني عن ذلك، لكن يبدو أنَّ للروح حدودا أيضا، حتى وإنْ لم أستطع أن أبصرها فإنني أستطيع استشعار وجودها؛ أتيقن مع كل لحظة تمر أنّ كلّ شيء هنا يسير وفق الشعور والإحساس.

بدأت بعبور الرصيف إن صح وصفُ المساحة التي بين الطريق والحاشية المزعومة، وعلى عكس ما ظننت فإن الأشجار لم تقتصر فقط على حواف الطريق، وإنما امتدت حتى الداخل ولازلت تمتد كأنما هي غابة كاملة من الأشجار. كما لاحظت أنني كلما تعمقت بداخلها أكثر إلا ورأيت أصنافا جديدة من الأشجار بألوان متعددة لماعة براقة؛ بخصائص مختلفة من اللون والشكل وحتى الرائحة! قد تركت الأشجار البيضاء ورائي منذ قليل، والتي لم أدرك أنَّ شكلها مميز لظني السابق أنَّ جميع الأشجار ستكون على نفس الهيئة، لكن ما إنْ بلغتُ حدودا بها أشجارٌ قرمزية اللون وأوراقٌ ذهبية، حتى لاحظت تغير الشكل أيضا، كانت البيضاء منها بجذوع

عريضة وحواف تبدو قديمة متآكلة، لكن جذوع القرمزية كانت رقيقة للغاية، صحيح أنها تتساوى في طولها مع سابقتها لكنَّ ملمحَ حوافها يبدو ناعما، كأنك إن أنت أردتَ تسلقها لن تمنحكَ القدرة على ذلك مخافة الإنزلاق. على كلٍّ أنا لم أرَيوما أشجارا بمثل هذا الجمال! إنها مبهرة.

نفس الأمر اقتصر على خصائص التربة، قد أسلفت القول أن تربة الطريق في حد ذاتها كانت وردية اللون، لكن بمجرد أنني دخلت الرصيف حتى غدت سوداء، وبعد الوصول إلى حدود الأشجار القرمزية أصبحت رمادية. كذلك الأمر حول ملمسها، لا أرجل لدي لكن نعومة التربة اختلفت بين المنطقتين إن صح التعبير، إنها تتضاءل مع كل خطوة أخطوها تجاه الحاشية.

إنني أود حقا البقاء هنا، جميلة هي هاته الغابة وزاهية هي ألوانها، تناسقها عجيب جدا، أود المكوث بها ولكنني في عجلة طفيفة من أمري كي أدرك الحاشية المزعومة؛ الفضول يخلقُ الاستعجال. يا هل ترى هي طريقٌ فحسب أم جسر؟ سأعلم قريبا.

يبدو أنَّ قدرة ملاحظتي قد زاد تركيزها أكثر في هذا المكان، هل بسبب ندرةِ الملهيات؟ أم لأنني أستهدفُ كل أمرٍ على حِدى؟ لاحظتُ أنه كلما قّل اهتمامي بالمسافة التي عليّ قطعها، كلما رأيت أنني قد قطعت مسافة أطول من التي توقعت. إن أكملتُ على هذا النحو لربما لن تكون بالمسافة الطويلة التي حزرتها من قبل،

ما يعني أنني سأبلغ الحاشية عما قريب، هذا إن استمرّ عدم اهتمامي ببلوغها، أكثر من اهتمامي بالاستمتاع بتنوع أصناف الأشجار وخصائصها. ها أنا قد بلغت نوعا آخر مجددا، هي الآن أشجارٌ بنية فاتحة بأوراق بنفسجية برائحة فاكهة البرتقال الغريب أنه لا ثمار برتقال هنا! ولا في الأشجار السابقة، ما مصدر هاته الروائح الزكية إذا لم يكن هنالك فواكه أو زهور؟

لقد شرعتُ فعلا في التفكير جديا بالبقاء هنا، التجوال من حين لآخر بين مختلف أصناف الأشجار سيكون رائعا، هو مكان مذهل في الأخير، لكن ماذا سيكون طعامي لو أنني شعرتُ بالجوع؟ أنا لست أشعر به آنيا، لكن ماذا لو فعلت؟ كيف سيتسنى لي الأكل ولا وجود لثمارٍ بهاته الأشجار؟ ولا وجود لفمٍ لي أيضا! هذا لو كان الأكل في حدّ ذاته أمرا ضروريا، ربما لا يجب عليّ ذلك. إن كانت هنالك حاجة له فعليّ المغادرة كي أجد مكانا به طعام، وإن لم تكن فلا أعلم على وجه الخصوص لِمَ علّي أن أعبر هذا الجسر؟

إنَّ كلمةً ظلت تتردد بداخلي وأنا أقوم بتجاهلها منذ أن فكرتُ في ماهية هاته الطريق: ظل صدى كلمة "برزخ" يعاود نفسه في كل مرة أغوص بها داخل الرصيف. ما هاته الكلمة اللحوحة؟ وهذا الصوت المتكرر؟ هل هو يحاول بطريقة ما إخباري أنَّ هذا الجسر يسمى "البرزخ"، أو أنَّه إسمُ ما أنا مقبل عليه؟

(أو الطريق، لا أعلم على وجه التحديد، المهم أنه بعبوري إياه سأبلغ مكانا آخر غير هذا الذي أنا فيه).

لم يستقر هذا الصوت الداخلي على تلك الكلمة فحسب، بل بمجرد أنني أعرتُها بعض الاهتمام بعد أن تجاهلتها لفترة كافية وحاولتُ فهمَ مقصدها حتى بدأ الصوت مجددا في طرح مفاهيم أخرى مغايرة، بل وأصبح لا ينفكُّ يملي ما يجب عليَّ فعله! يطرح إملاءات من قُبيل "اذهب من هنا"، "تفادى تلك البقعة"، "اتجه هناك" وغيرها من العبارات اللحوحة.

كما أنَّ شعورا غريبا قد اختبرته سابقا، مرارًا وتكرارًا، قد بدأ يزعجني بعض الشيء، إنه يشبه شعور الملل، وهاهو قد بدأ يراودني قليلا! لكن، ألمْ يُقالُ لنا أنه لن يكون هنالك شعور بالملل في الجنة؟ إذنْ من هنا أستطيع أن أستنتج أنني لست في الجنة بعد. وعلى ما أعتقد، فإنَّ الملل مسموح به هنا بل وموضوعٌ وجوده عن عمد فقط كي تنوي مغادرة هذا البرزخ دون الاستقرار به لاسيما إذا شعرتَ بالراحة فيه وقررت البقاء، أنتَ ستحتاج إلى حافزٍ ما يحثك على المغادرة، ولا أفضلَ من شعور الملل المتزايد على الحث لتغيير موقفك. إذن هذا الجسر هو منطقة عبور وحسب، هو ليس الوجهة، وليس المستقر، هو جسر وفقط، أنا متيقن الآن أنه جسر، حتى وإن لم أبلغ الحاشية بعد. مثله مثل

الحياة، وُضِعَ بهما الملل فقط بغية البحث عن الوجهة، عن المستقر، عن المكان الذي لن تشعر فيه بأيِّ ملل.

وأنا أفكر في هذا الأمر لم أنتبه إلى كوني قد مررت بأنواع أخرى من أصناف الشجر واقتربت من بلوغ الحاشية. والغريب أنني كل ما اقتربت أكثر منها كلما أصبحت الأشجار أشبه بأشجار ذلك العالم، وأصبحت تربته بنية أكثر. ما الذي يعنيه هذا؟ هل يا ترى سيكون ذلك العالم الذي كنت به موجودا هو ما سيَلي هاته الحاشية؟ آهاه، ها أنا ألمحُها! هاهي على مرمى من البصر، انتظر ريثما ألقي نظرة فاحصة لما بعدها.

بدأتُ بالجري لعلي أبلغها في أسرعِ وقت وإذا بها كلما فعلتُ ذلك وإلا ووجدتُ نفسي ابتعد أكثر عنها! آه، إنني لم أعتد بعد على القوانين السارية هنا! أنا أقوم الآن بانتهاك قانون الإهتمام والعجلة. إنه عكس قانون الجذب في العالم الآخر، الذي يقول أنك كلما فكرت باهتمام حول موضوع ما أو شخص ما، كلما زاد انجذابُهُ نحوك (أو العكس). عليَّ أن أشغل نفسي بتأملات أخرى كي أقترب منها من جديد (أو تقترب هي مني، المهم أنَّ المسافة بيننا ستتضاءل).

هل تملك هذه الغابة حيوانات؟ لا توجد غابة في العالم السابق ليس بها حيوان، لكنَّ الأمر مختلف هنا؛ في الحقيقة أنا لم أبصر أيَّ مخلوقٍ غيري، ناهيك عن ايجاد حيوانات، لاشيء

يتحرك سواي، كل شيء ساكن، حتى أوراق الأشجار ثابتة وكأنَّ الزمن قام بتجميدها. غريبٌ أنني لوحدي في كل هذا البرزخ المهول (لقد قررتُ أنْ أسميه كذلك، حتى تذهبَ تلك الكلمة بعيدا عن بالي)، كأنني سمكة صغيرة وحيدة وسط بحر كامل!

إنَّ أمرَ التأمل هذا ينجحُ، هاهي الحاشية أمام نظري مرة أخرى، وهي أقرب من أي وقت مضى! يا للنرفزة التي تتملكني الآن، على ما أنا مقبلٌ عليه يا ترى؟ هل سأتمكن من رؤية العالم السابق؟ أو الدنيا كما اكتشفتُ اسمها من قبل؟ أم أنها مجرد هلوساتٌ جانبية؛ علي أخذ أنفاس طويلة كي أهدأ قبل استطلاع ماهية الحاشية.

انتظر لحظة، ما هذا؟! ما الذي يحدثُ هنا؟ لاشيء قد تغير لا يوجد شيء هنا، إنه الفراغ! حسنٌ، صحيح أنني أدركت أنَّ الطريق في الأخير هو جسر، لكن لدهشتي الكبيرة لم أستوعب بعد كيف أنَّ الفراغ يملأ ما يليه. هو جسرٌ والحاشية هيَ جانب من جوانبه ولكن لا يوجد شيء بعدها. سأمعنُ النظر مجددا لعليَّ أرقبُ أيَّ شيء؛ لكن هيهات، لا شيء على الإطلاق، فراغ سحيق محيق. لكن لِمَ إذن توجد هاته الأشجار البنية ذات الأوراق الخضراء والتربة البنية؟ لقد ظننت لوهلة أنني سأعثرُ على ذلك العالم إنْ أنا بلغت نهاية الحاشية، لكن لا بأس بهذا، أنا في النهاية لم أكن لأحاول

العودة إليه حتى ولو وجدته حقا، من ذا الذي يغادر سلامًا كهذا من أجل قلقٍ كذاك؟

لكن الفضول، آه على فضول نوعنا، الذي لطالما بعث بنا إلى مسارات لا يُحمدُ عقباها. إنَّ الصوت الداخلي يحثني على العودة أدراجي وعدم ارتكاب حماقات. حماقات؟ لِمَ وصفها بهاته الكلمة؟ من يعلم إذا ما كانت هاته التجربة حماقة إذا أنا لمْ أجرِّبْ فحواها؟ أظنني سأفعلها، أنا سأحاول القفز في هذا الفراغ! نعم سأفعلُ ذلك! ليس لأنني أحاول العودة إلى ذاك العالم أو ما شابه لكن بما أنني بدون جسد فلما الشعور بالخوف إذن؟ أنا لن أصاب بكسور أو ارتجاج أو ارتطام، في أسوأ الأحوال أنا لن أموت لأنني ميت أساسًا! إنَّ الصوتَ الداخلي يصر إصرارا على أنني يجب أن لا أفعل ولكنني سأفعل لأرى الذي سيحصل، يبدو أنّ الفضول سيتبعك دوما، حتى وإن جبت العوالم والأبعادَ كلها لقد قررّت دون رجعة، أنا سأقفز!

واحد، اثنان، ثلاثة! ااااااااااااااااااااا، ما هذا؟ إنني أصعد إلى فوقْ وكأنّ شيئا يدفعني نحو الأعلى! ووووووووووووووووو، لقد ظننتُ أنني سأهبط في الفراغ فإذا بي أصعد فيه! هل الجاذبية في هذا الفراغ مُعدّةٌ كي تمنعك عن النزول إلى ما تحت الجسر؟ هل هذا يعني أنَّ ما يوجد في الأسفل هو العالم السابق حقا؟ لكن

هل أنا في وضع يسمحُ لي بالتساؤل؟! إنني أطير حرفيا وفي نفس الأوان أتساءل؟

يا إلهي! ما الذي يحصل؟؟ إن شعورا مريبًا يساورني، كأنني أشعر بوجودي على وشك الإندثار؛ كأنَّ شقوقا تحدثُ بي، إنني أتمزق وأتشتت... إنني أتلاشى! إلهي أنقذني، إنَّ الأمر مؤلم آآآآآآآآآآآآي!! أنا لن أعيدها مجددا!! هذا وعدٌ مني يا إلهي! أنا لن أعيد القفز مرة أخرى! يا له من أمرٍ غبي هذا الذي فعلتْ!

وبمناجاتي تلك نجحت في الهبوط مرة أخرى، أو بالأحرى السقوط، الهبوط اختياري أما السقوط ففجائي واجباري، وقد كنتُ مجبرا عليه، إذن لقد سقطت. لقد وجدت نفسي أناجي الرّب لإنقاذي دون قصد، لكن هذا الإنقاذ كان مؤلمًا بحق، كأنَّما ارتددتُ عن سقفٍ ما بعد أن ارتطمتُ به بغتةً، لقد شعرت بذلك، لقد ارتطمت بسقف سميك وكأنَّه سطحُ اسمنتي مسلح! إذن هنالك حدود لهذا الفراغ لا أستطيع ابصارها. يا ترى ماذا يوجد أعلى ذاك السقف؟ أ يمكن أن تكون الجنة فوقه مباشرة؟ وما تحت هذا الجسر هو بمثابة سقف ذاك العالم الدنيوي؟ هل القوانين الفيزيائية هنا هي نفسها الخاصة بذاك العالم؟ أشك في ذلك، قد جربتُ الجاذبية لتوي ووجدتها عكس الذي هي عليه هنالك. لكن لِمَ لَمْ أستطع النفاذ مباشرة من خلال السقف؟

أربما لأنني لم أحَاسَبْ بعد؟ هل يعتبَرُ ذلك غشا؟ لربما المنفذ الوحيد "ما فوق" (جنّةً كانت أم شيئا آخر) هو حين تُنْهي حسابك بنجاح، من يدري؟ على كل حال، أنا لن أعيد الكَرّة، الأمر مؤلم جدا! لا جسد لي كي أشعر بالألم ولكن ألم الروح هذا كان أشدّ وطأة علي، ستشعر وكأنها تتمزق حرفيا، لكن لا علينا، إشباع الفضول يستحق المحاولة، أليس كذلك؟ لكن لهاته المرة فقط، لن أعيد الأمر مرة ثانية.

انتظر لحظة، أين أنا؟ لقد سقطت مجددا فوق النقطة التي استيقظت بها سابقا، هاهي تلك الأشجار البيضاء ذات الأوراق الزرقاء. لربما مثلما دلَّ وجود الأشجار البنية ذات الأوراق الخضراء على قرب العالم الدنيوي، دلَّ وجود هاته الأشجار البسيطة اللون والشكل على قرب وجود العالم الأخروي (من أين قمتُ باستمداد لفظ "الأخروي" هذا؟). هي دلالة إذن على أنّ البساطة هي أسمى سمات الكمال، ربما، لا أدري.

إذن كلُّ ما عليَّ فعله حالا هو عبور هذا الجسر، بدون أي تعقيدات زائدة، وإلا فستزداد متاعبي أكثر وينمو الملل في أعماقي كما بدأ يفعل الآن ببطئ. سأفعل ما يقوله الصوت، أعرضتُ عنه قبل قليل وقد رأيت الذي حدث، لقد أوشكت على الزوال، زال جسدي ولست على استعداد كي تزول روحي أيضا، أنا مازلتُ لم ألتقِ أحدًا بعد حتى أزول!

سأشرعُ في المشي نحو نهاية الجسر. مشي؟ لا أمتلك أرجلا كي أمشي بها، ولكنني استنادا إلى السرعة التي كنت أمشي بها في ذلك العالم، ومقارنةً بسرعتي الحالية، فهي جدٌّ متقاربة ولذلك قد استنتجت أنني في الحين أمشي. وكي أمنع الملل من التوغل أكثر في روحي بدأت في محاولة استذكار حياتي السابقة؛ تراني كيف كان موتي؟ أذكر جيدا لحظة خروج روحي عن جسدي. لقد استرجعتُ أحداثَ حياتي الأكثرُ أهمية في بضع لحظات قليلة. لكن ما الذي حدث حتى مِتُّ؟ كم كنتُ أبلغُ من العمر؟ هل كنت شابا أم رجلا أم كهلا؟ أنا قدْ استبعدت خيار كوني قد مِتُّ طفلا أو رضيعا لأنني أعلم مسبقا الكثير من القوانين الفيزيائية التي لا يمكن لطفل أن يتعلمها إلى حين أن يكبر. أما النقطة الثانية التي أعتقدها يقينا هي أنّ الطفل أو الرّضيع لن يُحاسب، بل وسيمرّ مباشرة إلى الجنة.

لكن ما الذي جعلني أحصرُ خياراتي الجنسية على أنني شابٌّ أو رجل أو كهل؟ على أنني ذكر؟ لربما كنتُ شابة أو إمرأةً أو عجوزا شمطاء يكرهها الجميع؟ متى سيتسنى لي معرفة كل هاته الأمور عن نفسي. إنني أذكر القليل القليل عني، ولست مسرورا بهاته المعرفة المحدودة. أريد أن أعرفَ أكثر! على كل حال، كل هذا سيتبين، أنا متأكد، أو على الأقل آملُ ذلك.

ماذا عن وفاتي، هل كانت طبيعية أم أنها حدثت بشكل عرضي؟ هل تمَّ اغتيالي؟ أبسبب حادث ما؟ لربما فارقتُ الحياة أثناء منحِ جنيني إياها أثناء الولادة؟ ربما كنتُ مريضا أو مريضة بشدة وأنهكني ذلك الأمر إلى أن وافتني المنية. لقد بدأتُ أتذكر بشكل تدريجي أمورا كثيرة عن ذلك العالم ولكنها أمور عامة لا تخصني بشكل خاص، إنما هي كل ما قد يمر بها كل شخص هنالك، مرض، موت، حادث، اغتيال.

يا هل ترى كنتُ متزوجا؟ هل كان ليَ أولاد؟ وإن كان لي فمن سيعتني بهم إذن؟ أبوهم أم أمهم؟ من الآن فصاعدا سأستنِدُ إلى كوني ذَكرًا حتى أُبْعِدَ كلَّ لُبس في الحديث إلى أن تتبين حقيقة أمري. إذن زوجتي هي من ستتكفل بهم؟ لكن لربما هي متوفية أيضا. على الأقل حتى ولو كنا نحن والداهم متوفيين، هل كان لهم من المال الكافي ما يستطيعون به إعالة حيواتهم؟ هل كنت فقيرا؟ أم غنيا وبذلك فلن أقلق على أوضاعهم المادية؟ لكني أخافُ أن يحيد بهم المال بعيدا عن الطريق السوي. فقط لو كانوا يعلمون ماهية هذا المكان، لربما تركوا كل شيء وتمنوا أن يموتوا في أسرع وقت مثلما تمنيت أنا نفسي حينما استيقظت. يبدو أنني قد بدأتُ أُجَّن، لا أعلم حتى إن كان لي أولاد ومع ذلك فإنني أشعر بالقلق عليهم! كما أنَّ الجنون مرضٌ عقلي، إذن تقنيا أنا لن أجنّ

بما أنَّ لا عقل لي، إلا إذا كان لروحي عقلٌ خاص بها بعيدا عن الخاص بجسدي.

لِمَ ذاكرتي قد مُحِيَتْ بخصوص أشياء معينة ولَمْ تفعل بخصوص أخرى؟ أتذكر تقريبا كل شيء يخص الطبيعة وقوانينها لكن لاشيء يخصني أنا نفسي، هل إن أنا بلغتُ مرحلة الحساب سأسترجع ذكرياتي كلها؟ أم أنها اندثرت بعيدا بما أنها ليست بتلك الأهمية وما هو آتٍ هو أهم وأبقى؟ من يدري؟ لعل ذكرياتي القديمة مخزّنة الآن في درج ما خاص لا يمتلك مفاتيحه إلا مَلاكٌ يسمى ملاك الذاكرة، ينتظر وصولي كي يسلمني إياها. لكن مِنْ أين أتيتُ بملاك الذاكرة هذا؟! علي حقا أن أخفف من وقع توقعاتي المسبقة هاته. مع أنني أتمنى فعلا لو يكون باستطاعتي أن أسترجع بعض الذكريات، أعلمُ أنني قد مررت ببعض اللحظات الجميلة في ذلك العالم ولا أود خسارتها، لابد أن يكون لمَلاكِ الذاكرة وجود وإلا فلن أكون سعيدا بغير ذلك!

ماذا عن حياتي؟ هل كنت شخصا جيدا؟ هل جعلت العالم مكانا أفضل؟ لا أذكر الكثير، لكن الذي كان يُقال هنالك أنَّ قيمة المرء قرينةٌ بما يُحْدِثهُ من فرقٍ بين مجيئه إلى ذاك العالم وذهابه منه، في تلك المساحة الفاصلة والتي ستحدد مسار حياته الخالدة بأكملها. على كلٍّ، أعتقدُ أنَّ كل شيء سيتبين أثناء حسابي. مع أنني أشعر بالخوف قليلا، أو لنكن صادقين، أشعرُ بكمية خوفٍ

معتبرة. ماذا لو كان حسابي عسيرا؟ أخشى أنني كنت شخصا سيئا، حقيقةً آملُ أنني لم أؤذِ أحدا هنالك، لست على استعداد أن يلاحقني أحدٌ ما هنا بسبب إذنابي في حقه في زمنٍ سابق.

وأخشى ما أخشى على نفسي من تلك الأمور التي اعتبرتها توافهًا مارّةً مرورَ كرام، وقد كان أثرها عميقا دون أن أدري، لربما أذكرُ أنني كنت شخصا مزَّاحا ضحوكا، ما يعني أنه ربما قد قمت بالسخرية من أناس كثر، لا أدري منْ منهم قد تقبَّلَ مزاحي ومن حمله على محمل الجد فآذيته، رباه..

أتمنى حقا لو أنهم قد سامحوني، أتصور أنهم قد فعلوا ذلك أثناء جنازتي، هذا فرضاً إن هم حضروا حقا؛ ماذا لو أنَّ لا أحد قد حضر جنازتي؟ حرفيا لا أحد، هل يعلمون حتى أنني ميت؟! ربما كان موتي بعيدا عن كل بشر! ربما كان بناحية بعيدة في جبل أبعد! لعلَّ أحدا قد قام بقتلي وأخذ جثتي بعيدا عن مرآى الجميع، أخشى أنَّ جسدي لم يُدْفَنْ كما يليق، رُغمَ انعدام أهمية هذا الأمر هنا. لكن وددتُ لو أنني دُفِنْتُ وإن لم يكن للدفن فائدة عملية، بتابوتٍ خشبيّ محكم الإغلاق حتى لا يتمَّ التهام جسدي من طرف الديدان!

عليَّ فعلا أن أتعلم أنْ لا أستبق الأحداث مجددا! ها أنا أفعلها مرة أخرى، لربما العكس تماما هو الذي حدث!

ربما قد عشت حياة طويلة مليئة بالحب والأعمال الطيبة الصالحة، زوجتي كانت تحبني (هذا إن كان لي أي زوجة، ربما قد مِتُّ قبل أن أتزوج!) والأولاد كذلك والأصدقاء (ربما كنت وحيدا؟ من يدري؟)، ويستحيل عليّ أنني كنت من النوع الذي يؤذي الناس (يستحيل؟ من أين لي بهاته الثقة المفرطة والجزم المزعوم؟). إنني قد مُنِنْتُ بميتة طبيعية في منزلي وسط عائلتي، وهم قد قاموا بكل اجراءات الجنازة المعتادُ القيام بها، قد قاموا بتغسيلي وتكفيني وأتى جمع غفير كي يُعربوا عن أسفهم لموتي وإلقاء النظرة الأخيرة عليّ، وقاموا بعدها بدفني وسط حزن عميق منهم لفقداني، أو ربما قد قاموا بحرق جثتي وذرّوا رمادها في نهرٍ كان محببا لي، مع أنني حقيقة لا أحبذ فكرة الحرق. لا أعلم كيف تمّ التعامل مع جثتي تحديدا، ولكن أعلم أنه قد تمّ الشعور بالحزن تجاهي، أعلمُ أنَّ الحزن لم يدُم كثيرا ولكنهم على الأقل قد شعروا به لحظتها حزنٌ لفقدان شخص مثلي، فذاك العالم لا يزال بحاجة لأشخاص من طينتي، لربما قد قالوا في دواخلهم وفي تبادل الحوارات بينهم :"قد كان شخصا طيبا بحق، رحمه الربّ (فلترحمه السماء، أو لم يترحم أحد، ربما شهادةٌ بكوني كنتُ "طيبا" تكفي)

على كل حال، أظنّ أنه استنادا لشعور السلام الذي غمرني حينَ استيقظتُ في هذا البرزخ، فإنَّ احتمالية أنني كنت شخصا صالحا هي احتمالية عالية الورود. لعليَّ استُشهِدتُ، شهيدُ حربٍ أو حق، من يدري؟ أتمنى ذلك. لست على استعداد لتمضية ماهو آتٍ في الجحيم! على الإطلاق، فكرة مرعبة جدا!

يعجبني شعور رؤية تلك الشمس في صلبها دون أن أصاب بالعمى هل هي نفس شمس العالم الذي كنت به؟ صحيحٌ أنّها دائرية مثلها، لكنَّ نورها ليس شديدا، إنه يشبه نور الغروب بلون متدرج بينَ بنفسجي وزهري، خافت وخفيف، لكن ليست هي نفسها. ضِفْ إلى ذلك أنَّ ذاك العالم كان يمتلك العديد من الشموس أما هاته فواحدة، لو كانت نفسها هي تلك السابقة لما كان باستطاعتي رؤيتها بهذا الوضوح دون أن أفقد القدرة على الرؤية هل لأنني لا أملكُ عينان، لن أصابَ أو أشعر بالعمى؟ الأمرُ ليس سيان، ما بين أنْ ترى الأشياء بروحك، وجسدك.

قد أسلفتُ القول من قبل أنه، لو لا شعور الملل المتزايد مع انقضاء كل لحظة والإلحاح الباطني داخلي (هل للروح إلحاح باطني؟) لِعُبورِ هذا الجسر لبقيتُ هنا. لقد أُعجبتُ فعلا بهذا المكان، لكن سرعانَ ما حين أتذكر أنّني لم أرَ الرب بعد، وأنني لم ألتق أي أحد أعرفه أو لا أعرفه، وأنني لا أزال أجهل الكثير عن نفسي، وأنّ الجنة هي مكان أفضل بمرات من هذا المكان، ينتابني

الفضول لاختبار كل هذا! ما هذا المكان الذي يملك أشجارا أفضل من هاته الأشجار الجانبية؟ الذي له شمسٌ أفضل من هاته التي أرى؟ مكانٌ لا ملل به؟ ولا ندم ولا غضب ولا كآبة ولا أية مشاعر بغيضة؟ مكان فيه من الناس من يمكنك التحدث معهم دون مخافة أنْ يتم سوء فهمك؟ فيه زوجتي ربما؟ أولادي؟ والداي؟ مكان تتحقق به الأحلام؟ مكان مثالي، إن لم ينتبك الفضول لرؤية مثل هذا المكان، متى سينتابك إذن؟ لربما لِحين رؤية خالقك ستتساءل إن كان هو نفسه خالق الحياة والموت، وهذا المكان والذي كان من قبله وما يليه؟ كل شيء؟

اتضح أنني بدأت أفهم بعض القوانين هنا، إنْ أنت كنتَ مشغولا بالتفكير في أمر ما، كان وصولك إلى المكان الذي ترغب بالوصول إليه أسرع، لا علاقة لذلك بسرعتك الخاصة أو المسافة الواجب عليك قطعها، طويلة كانت أم قصيرة، هو أمرٌ نسبيٌّ يستند إلى قدرتك على الانشغال بالتفكير؛ حقيقةً أنا سعيد بهذا الاكتشاف، هذا يعني وصولا أسرعَ إلى ما ينبغي لي الوصول إليه.

وهاهو ما ينبغي لي الوصول إليه يلوح في الأفق، وعلى عكس ما كنت أظن أنني سأجد ما يشبهُ بوابة خشبية ضخمة ذاتَ رهبة باعثة على غموض وعظمة، يحيطها ملائكة حارسة بأجنحة طويلة، فإنَّ الذي أمامي الآن هو باب خشبي صغير أخضر داكن اللون. منبثق من عدمٍ بحت، لطيف تنتصفهُ دائرة معدنية

بيضاء، هي كبيرةٌ قليلا مقارنةً بحجم الباب الصغير، أظنها مُعدةٌ خصوصا للوارد بغية الطرق بها. الأمر المنطقي أنَّ الباب في ماهيته هو فتحة تمكنك من المرور من خلال حاجز بين منطقة وأخرى لكن العجيب أنَّ هذا الباب الصغير لا تُسنِدُهُ أيةُ أسوار! أو لربما هنالك أسوارٌ ما لكنها غير مرئية، تبدو من الخارج على نفس شاكلة ما أحاط بي منذ بداية الطريق. أقصد أنني أرى أنَّ وجود الأشجار والرصيف لا يزال ممتدا، وكأنَّ باستطاعتي النفاذ من وراء الباب دون الولوج من خلاله.

ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أكملُ الطريق بالاتجاه الذي كنتُ بصدده وأتجاهل هذا الباب المُنبثِق من العدم؟ أم أطرق دائرته المعدنية بغية طلب الدخول؟ لكن لابد لي من يدٍ كي أفعل ذلك! عليَّ أن أُفكر قليلا، إنَّ الصوت بداخلي يمنحني الأحاسيس اللازمة لاتخاذ القرارات، يساعدني دون أن يمنحني الإجابة الكاملة مجرد تلميحات جانبية. إن أنا فكرتْ، سأجد أنَّ لا معنى من استكمال الطريق وهذا الباب قد ظهر أمامي فجأة، كأنَّ لوجوده سبب وجيه وهو أن أحاول دخوله، لكن أيضا إن أنا أردتُ الدخول لن يكون بمقدرتي فعل ذلك، كيف لي أن أطرق الباب وأنا لا يد لي! إذا كان الأمر متاحا فإنَّ هنالك حيلةٌ ما عليَّ اكتشافها.

ماذا عن محاولة الذهاب من وراء الباب؟ لعل خلفيته لا تمتلك هاته الدائرة المعدنية وبذلك ستسمح لي بالولوج بسهولة على عكس هاته المقدمة؟ سألقي نظرة. نفس الشيء يحدثُ مجددا، لقد استطعتُ الالتفاف حولَ الباب، ولكن كذلك فعلتْ مقدمة الباب! لقد التفَّتْ بأكملها تزامنيا معي! هاهي تلك الدائرة المعدنية الغريبة مرة أخرى، هنالكَ حيلة في الأمر، عليَّ أن أركز.

هل أصرخ لربما يستطيعون سماعي؟ ولكن لا فم لي أيضا! لا لا يجب عليّ ذلك، وإلا لِم الحاجة إلى هاته الدائرة المعدنية إذن؟ هُمْ يعلمون يقينا أنني سأُقبلُ عليهم ومتوقعٌ هو وصولي، إذن يدركون أنني سأكتشف الحيلة بنفسي، هنالك حيلة ما حول هذا اللغز. لكن من هؤلاء؟ من هم الذين أقبلَ حضورهم على تفكيري فجأة؟ قد تساءلتُ سابقا عن آخرين والآن أنا أفعلها من جديد. ركزّ يا تفكيري! ليس هذا هو الوقت المناسب لهذا السؤال! لحظيا عليَّ أنْ أجدَ طريقة لفتح الباب، وليس التساؤل حول ماهية من الذي وراءه!

هنيهة من فضلك، لقد جالت بخاطري فكرة عابرة يمكن لها أن تكون صحيحة، إنَّ جلُّ الذي يمكنني فعله في الحقيقة هو التفكير، وهذا الأخير هو ما نجح في جعلي أقطعُ مسافة ضخمة في فترة قصيرة نسبيا لِمَا توقعت، هل يمكن أن يكون "التفكير" هو الحل في جعلي أطرقُ الباب؟ لربما إن جربتُ بالتفكير في الأمر

سأنجح في عملية الطرق ذهنيا! فقط إن أنا فقط "فكّرتُ" في ذلك سيُفتحُ الباب آليا، سأجربّ، في الأخير أنا لن أخسر شيئا.

إنّه يعمل! إنّ الدائرة المعدنية تهتز! عجيبٌ! إنَّ التفكير قد أتى بثماره! أنا أستمعُ الآن إلى صوت الطرق وهو يحدث! أهذا يعني أنه يمكنني فعل الأشياء بمجرد التفكير فيها!؟ يمكنني أن أتلمسَ هاته التربة وأتحسس جذوع الأشجار وملمس الباب الخشنِ مظهرهُ بأفكاري البحتة؟ دون أي فعل ميكانيكي؟

للتخاطر وجودٌ إذن؟ لم أكن أتصور يوما أنَّ هذا ممكن الحدوث أنَّ الأمور قد تحدثُ تخاطريا! سأعيدُ الطرق على الباب، نعم إنني أطرق بمحضِ خيالي الصرف، رباه لا يمكنني التصديق! عليّ أن أهدأ قليلا، إنَّ هذا ممكنٌ في هذا العالم، مثيرةٌ قوانينه ومرعبة في آن واحد. على كلٍّ، لا تزال الكثير من الأعاجيب في انتظاري لكن لنرى أولا ما نوع الأعجوبة التي تنتظرني خلف هذا الباب.

ها هو ينفتح، هل فتحه أحدٌ ما أم أنّه معدٌّ تلقائيا كي ينفتح فور الطرّق عليه؟ أنا سأدفعه، لكن قبل أن أفعل سأنظر خلفي كي أتمّ نظرةً قد تكون هي الأخيرة على هذا المكان. لقد سرنّي كثيرا التواجد في هذا البرزخ، مع أنني لم أحبّذ ذاك السقوط المريب لكن على العموم هي تجربة حسنة. تمنيت لو كان باستطاعتي البقاء أكثر، حزينٌ أنهّ عليَّ أن أغادره؛ سأفتقد هاته الغابة العجيبة والتربة الوردية ولون الشمس البهي، لم أتصور أنني

سأشعر بالحزن لمغادرة مكان لم يستغرق بقائي فيه الزمن الكثير. هل نجحتُ فعلا بقطعِ كلَّ تلك المسافة؟ إنها مسافة مهولة بحق! حسنا، وداعا أيتها الأشجار، وداعا أيتها الشمس الحنينة، وداعا أيها البرزخ العظيم، عليَّ الذهابُ الآن، قد سررت بمعرفتكم جميعا! وداعا!

الفصل الثاني

"سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا"

الآية 78 - الكهف

وبينما أنا أستدير مجددا نحو الباب فإذا بي أُصاب بذعر شديد، رباه ما أعظمك! ما هذا؟ من هو هذا المخلوق؟ أو ماهو أصلا؟ هل هو ملاك؟! هالته غريبة على نحوٍ مريح، أعلم جيدا أنه ملاك! لكنَّ رؤية مخلوق آخر متحرك غيري لأول مرة، وتواجده خلفي بطريقة مباغتة هو ما جعلني أهلع هكذا.

- رباه ألم يكن في استطاعتك أن تقول شيئا لحظة فتحك للباب، تفاديا لإصابتي بالذعر؟

وهل الذي رأيت أمامك شيطانٌ حتى تذعر هكذا؟ من ذا الذي يفعل جرَّاء رؤية ملاك؟ (قال الملاك وهو يخلي لي السبيل كي أدخل) لقد أطلتَ المجيء، هل لَربما لأنك جرَّبت القفز من فوق الحاشية؟ فعلتَ، أليس كذلك؟ جميعكم يفعل ذلك، تتوهمون العودة إلى عالمكم، على كل حال لقد كنا في انتظارك، مرحبا بك.

إذن قد كنت محقا في جانب ما، إن أنتَ قفزتَ ونجحتَ في الهبوط في الفراغ بدلا عن الصعود فإنك ستكون قريبا جدا من ذلك العالم! لم أستسغ كثيرا قوله أنه "عالمنا"، هو عالمٌ وفقط لِمَ يصرُّ على إلحاقه بنا؟ كما أنَّ مباغتته لي هي التي أفزعتني وليست ماهيتُهُ كملاك، لأنَّ شكله النوراني الجميل بهذا الشكل الخرافي لا يمكنه إفزاع أي أحد إنْ هو لَمَحَهُ دون أي مباغتة.

إذن للملائكة وجودْ! لكن انتظر لوهلة، كيف أمكننا أن نتحادث!؟

لا فمَ لي وحتما لا أرى فمًا له!

- أيها الملاك، قل لي، كيف أمكننا أن نتبادل الحديث؟

بما أنَّ لا أفواه لنا لنفعل. أيضا، ماهي اللغة التي نتحدث بها يا ترى؟ لم يخطر على بالي يوما أنني سأكلّم الملائكة بطلاقة كهاته!

- إننا نتكلم تخاطريًّا، إنَّ كل ما يدور بخُلدك وتنوي أن تُحدِّثَ به شخصا ما فإنه سيبلغه على الفور، إذن لا حاجة لنا فعلية للأفواه، أما في عالمكم فالأمر كان مختلفا. بخصوص اللغة التي نتكلم بها فهي لغة الآخرة، الجميع هنا يتكلمها، بما أنها اللغة الوحيدة المتوفرة.

ما هذا؟ هل سمعته للتو يقول أنّ كل ما يدور بخُلدي سيبلغه على الفور؟ لكن ماذا لو أردت أن أفكر لنفسي فقط، هل سيستطيع معرفة الذي أفكر به؟

- هل يمكنك حزر ما الذي أفكر به حاليا؟

- طبعا يمكنني، أنتَ تفكر إذا ما كان أمكنني قراءةُ أفكارك التي لنفسك فحسب.

- ماذا! أنتَ تمزح، أليس كذلك؟

- طبعا أنا أمزح، لكم جميعا طريقة تفكير واحدة، هذا ما يسهل الأمر عليَّ دوما لتخمين محتوى سؤالكم المشترك هذا. حسنا، لنكن جديين قليلا، لا، أنا لا أستطيع قراءة أفكارك. أنت لم تُركّز جيدا مع الذي أخبرتك إياه منذ قليل، لقد قلتُ أنّه إذا كان بِنِيَّتِكَ أن تُبلِغَ الشخص المخاطب بما تفكر به فإنه سيحدث تلقائيا. كأنك منحتَ رخصة لفكرتك بالتحرر من قبضتك، كما أنَّ لك حرية الاحتفاظ بها لنفسك فقط، الأمر كله عائد إليك.

طبعا أنا لم أستطع التركيز، من ذا الذي يستطيع أن يركز حين يُكلم ملاكا لأول مرة في حياته، وهو الذي كان يشك في وجودها أصلا! على كل حال، لديّ الكثير من الأسئلة.

- إنكَّ أول من رأيتُ في هذا العالم، ما هذا المكان؟ أين أنا؟ أين الجميع؟ هل أنا الوحيد الذي وافته المنية هذا اليوم؟

- أولا هذا ليس عالما، أنتَ في "الآخرة"، هي تمثل مرحلة ما بعد العوالم المخلوقة كلها، وهاته قاعة "ما قبل الحساب"، وأنا آتروميل ملاك الاستقبال. ثانيا، أنت لست الوحيد الذي وافته المنية اليوم، كثيرون هم الذين قدموا إلى هنا. أيُّ أسئلة تراودك تخص هاته القاعة أو البرزخ الذي كنت به سأقوم بإجابتك عنها.

الآخرة؟ أظنُّني ذكرتُ هاته الكلمة منذ قليل.

- تشرفتُ بمعرفتك يا آتروميل، إذن، أين الآخرون؟ لم أرَ أحدا في البرزخ وأعجز عن رؤية آخر سواك هنا، هل أنا في قاعة الإنتظار أم ماذا؟

- الآخرون قد مرّوا بما مررت به أنت نفسك، كلٌّ له برزخه الخاص به، وكذلك قاعة ما قبل الحساب الخاصة به، لكنك ستلتقي بهم في مرحلة الحساب إن أنتَ نجحتَ في مغادرة هاته القاعة.

- لكلٍّ برزخه الخاص! وقاعة الانتظار الخاصة به! أتقصد أنَّ كل واحد منا قد وُجِدَ لوحده في مثل ذاك البرزخ المهول!! كم ستحتاج الآخرة إذن لمساحة كي تستوعب كل الذين ماتوا من قبل والذين سيموتون لاحقا!؟

- أولا، إنَّ الربَّ على كل شيء قدير، لا أظنك حقا قد ظننتَ أنه عاجز عن أمر هين كهذا؟! لقد كانت مشكلتكم أنتم البشر على عكسنا نحنُ أنكم تقيسون قدرة الإله المطلقة على مقياس قدراتكم المحدودة، لهذا قد عجزتَ أنت نفسك الآن عن استيعاب مدى احتمالية توفر برزخ لكل عاقل. ثانيا، هاته تسمى قاعة ما قبل الحساب، وليس قاعة الانتظار، من فضلك سميّ الأشياء بمُسَمَياتها.

إذن نوعنا يسمى البشر، لقد تذكرت هذا الآن، إذن أنا بشري في النهاية! لكن عليَّ أن أتظاهر أنني أعرفُ هذا مسبقا، كي لا يتم الاستخفاف بي من طرف هذا الملاك، أراهُ ملاكا ساخرا بدرجة امتياز، ملاكٌ بحسٍ ساخر؟ عجيب.

- وهل حدث يومٌ حاول فيه أحدٌ ما الهروب من برزخه؟

- طبعا، كثيرون هم الذين حاولوا ذلك، خصوصا منهم الذين استيقظوا مفجوعين لهول ما رأوه أثناء الانتقال من دنياكم إلى الآخرة؛ بعضهم حاول جاهدا عدم المجيء إلى هاته القاعة خوفا من الحساب، نحن مأمورون بتركهم على أهوائهم لمدة معينة، إن هم تجاوزوا تلك المدة المحددة بَعثنا الذي يأتي بهم رغما عنهم، لا أحد يستطيع الهرب من مصيره هنا.

- إذا لو قررت البقاء هنالك لما تسنى لي، أليس كذلك؟ ليس وكأنني أفعل ذلك هروبا من مصيري أو شيئا من هذا القبيل (أقولها ببعضٍ من الخوف والتحفظ)، أنا فقط أُعْجِبْتُ بروعة مناظره، هذا كل ما في الأمر.

- هاهاهاها. حسنا، لو يتسنَّى لك الدخول إلى الجنة ستضحك ملئ فاهِك على إعتقادك الخاطئ هذا، اعتقاد أنَّ ذاك البرزخ هو مكانٌ جميلٌ يستحق البقاء فيه، أنت لم تعِش التجربة بعد، لذا لا يمكنك الحكم.

أعجبني مصطلح "تعش التجربة"، إذن الأمر ليس مقتصرا على رؤية جمالية الجنة فحسب، اختبار العيش فيها في حد ذاته هو أمر جميل، كل ما حولها جميل ولطيف ويستحق تكريس حياتك كلها من أجل الظفر بتلك التجربة، لكني أستنتج من كلام هذا الملاك أنّه قد اختبرها سابقا، ويبدو أنني أنا من كنتُ غبيا في الحياة السابقة، تعلمون لماذا؟ كيف لملاكٍ خُلِقَ في الجنة ألا يختبرَ العيش فيها؟! سؤال أحمق.

- انتظر لحظة، ما الذي قلته سابقا؟ لقد قلتَ وأنا أقتبس "توفر كل برزخ لكل عاقل"، لِمَ قلتَ عاقل ولم تَقُلْ بشر؟ أليس الأجدر أن نسميَّ كل شيء بمسمايته؟

- وهذا الذي فعلتُه بالضبط، سؤال سهل للغاية، لأنكم ببساطة لستم الوحيدين المعنيون بالحساب! هل ظننت أنّ كل ذلك الكون الرهيب الذي كنتم به قَدْ وُجدَ فقط من أجلكم أنتم البشر؟! أنَّ العقلانية هي أمرٌ خاص بكم فحسب؟ نرجسيةٌ بحتة كما هو معهودٌ عنكم! دعني أعْطِكَ مثالا من عالمكم الخاص حتى تفهم قليلا. ألم ترَ أنكم كنتم بمثابة قطرة في بحر؟ تخيّل معي أنَّ قطرة من البحر، تعتبرُ أن كلَّ تلك البحور العديدة قد خُلِقَت من أجلها وفقط، ألنْ تكون ساذجة بيقينها ذاك؟ هكذا أنتم

ساذجون. اعتبرتم أنّكم كلٌّ من خلق الرب في ذلك الكون، هنالك كائنات عاقلة مثلكم مثلهم في أكوان بعيدة عنكم، بل توجد تلك الكائنات العاقلة على اختلاف تكوينها في نفس كونكم الذي كنتم تنتمون إليه!

أنا لن أسهب الكلام مع هذا المجنون، لأنني لا أدرِك معنًى لحديثه هذا، لذا سأختصر الطريق على نفسي.

- سؤال بسيط آخر من هذا النرجسي الذي يعتبرُ نفسه محور الكون، كيف يمكنني مغادرة هاته القاعة إذن؟ أريد اجتيازها إلى المرحلة القادمة.

- أتظن أنّ قاعةً بأكملها قد وُضِعَتْ هكذا فقط كي يتم اجتيازها بسهولة؟ ما الغرض منها إذن إذا كان ذلك صحيحا؟ كل شيء هنا بمعنى، كل شيء له غاية ما. أما عن جواب سؤالك بالمغادرة فلن تستطيع ذلك إلى أن تتمكن من اجتياز اختبار تقبُّل المصير.

- ألا يمكنك إعطائي إجابات مباشرة بدلا عن إجابة أسئلتي بأسئلة أخرى؟ لا بأس، ماهو اختبار تقبل المصير هذا؟ أنرني يا آتروميل العظيم.

- إعتبره اختبارا عقابيا أو معرفيا، هو اختبار سيعيد عرض كل لحظة قد حدثت في حياتك، ويركز أكثر على تلك اللحظات

التي كنت تُردّدُ فيها "ماذا لو أنَّ هذا قد حصل" أو "فقط لو جرت الأمور على ذلك النحو". هو اختبار يجيز لك معرفة في حالة ما إذا كانت السيناريوهات التي تمنيت حدوثها قد حدثت فعلا، هل كان سينجر عنها أيُّ خير كما توقعت؟ هل كانت شرّا مطلقا؟ ماذا خفي عنك في تمنياتك تلك؟ هل يا تراك وسّعت نطاق رؤيتك للأمور؟ هل كان لك علم بخباياها الخفية عن تقديرك؟

ما الذي يهرفُ به هذا المجنون؟! أعلم أنه ملاك وقد لا يكون له عقل أو قد يكون، من يعلم، ولكنه مجنون! ما الذي يقوله؟ هل سيعادُ شريط حياتي كلها أمامي؟! أعلم أنني اعترضت على بعض الأمور سابقا، ولكن جميعنا فعل! من ذا الذي لم يفعل؟ وبما أنَّ هذا الاعتبار ليس نفسه هو الحساب، ما الغرض إذن من معرفة شيء قد فات أوانه ولم يعد هنالك أي طائل منه؟ ضف على ذلك أنني لا أتّذكر أشياء كثيرة، لا أتذكر لا طريقة موتي ولا إن كان لي عائلة أم لا، كيف أمكنَ لي أن أتذكّر اعتراضاتي؟!

- لست أعترض على حكم الرب، لكن هل تعلمُ أنني لا أذكر الشيء الكثير مما حدث سابقا، لستُ أتهربُّ أو ما شابه ذلك ولكنني حقا عاجز عن استرجاع ذكرياتي القديمة.

- ذلك ليس بشيء يُذكر، أترى ذلك الباب؟

متى أُوجِدَ هذا الباب أيضا؟ أنا أُقسمُ أنه منذ قليل لم يكن هنالك! هنالك الكثير من المنبثقات من العدم في هذا العالم، آآآه ليست عالما، هاته الآخرة، لنسمي الأشياء بمسمياتها. عليَّ فقط مجاراته وكأنني قد لمحته مذ دخلت هاته القاعة كي لا أتعرض لسخريته، لأنني بصراحة لم أعد أطيقها.

- أجل، أنا أراه، ماذا عنه؟

- قم بالطرق عليه، هنالك ستلتقي ميموريبل وستُمنَحُ لك حياتك كاملة مفصلة، حظا موفقا في الاختبار.

- سررت بمعرفتك مرة أخرى.

لا أعلم حقا لِم قلت هذا، لأنني حقيقة لم أستسغ طريقته في الكلام لكنني شعرت فقط برغبة في قول شيء كنت أقوله باستمرار في ذلك العالم. أنا سعيد للقاء أيّ كان، ملاكا كان أم شخصا آخر، أنا فقط لا أريد أن أشعر أنني وحيد. إذن، بابٌ آخر؟ ما الذي أنا مقبل عليه هاته المرة؟ ميموريبل؟ من ميموريبل هذا؟ هل أنا إن دخلت ذلك الباب سأكون قد غادرت هاته القاعة أم لا؟ لا، لا أظن ذلك، قد قال ذاك "الآتروميبل" بنفسه أنني لن أتمكن من المغادرة حتى أجتاز اختبار تقبل المصير، سأتوجه إلى الباب أولا ولنرَ ما الذي ينتظرني هنالك.

الباب ليس بعيدا، لا تحتاج إلى أن تفكر في شيء ما كي تبلغه بأسرع وقت. حسنا، أنا سأطرق، ولن أنظر خلفي هاته المرة سأكون مستعدا لرؤية أيٍّ كان ولنْ أفزع.

ما هذا؟ إنه بنفس شكل آتروميل! ولكنه ليس هو، أعلم يقينا أنه ليس هو، لا أدري، كأنَّ هنالك شيئا كالهالة هو ما يُعين على تعريف أي كائن بعيدا عن شكله. هل سأتعرف إذن على جميع من سألتقي بعد حتى وإن كانت لنا نفس الأشكال؟ أعني أنّه برغم اختلاف شكل الملاكَيْن اللذان رأيتهما عن شكلي أنا، وتشابههما مع بعضهما البعض، إلا أنني أعتقد أنَّ الجميع يملك هالة خاصة به، سيتضح كل شيء.

- مرحبا بك، أنا ميموريل، ملاك الذاكرة ومرشدك في اختبار تقبل المصير، وهاته القاعة هي بنكُ الذكريات، تفضل معي كي أسلمك ذكرياتك.

- إلهي الأعظم! بنكُ الذكريات؟! إسم لامع! إذن هنالك وجود حقيقي لملاك الذاكرة! لقد تمنيت بشدة أن يكون لكَ وجودٌ حينما كنتُ متواجدا بالبرزخ.

- وهل ظننتَ أنَّ كل ما خطر ببالك هو مجرد صدفة فحسب؟ إنها إشارات ربانية، جميعكم يُحظى بها، هنا أو في حيواتكم السابقة. الإختلافُ فقط أنَّ بعضكم كان ينتبه لها

ويعيرها اهتماما خاصا بل ويدرك أنها رسائل من الرب، والبعض الآخر كان يمر عليها مرور الكرام، هذا كلُّ ما في الأمر.

- ماذا عن ذكرياتي؟ لقد أخبرني آتروميل أنني سأسترجعها هنا، هل هي مخبأة كما خطر على بالي بدُرجٍ ما لا يملك مفاتيحه إلا أنت؟ هل سأكون قادرا على تذكر كل شيء الآن؟ سأتمكن من معرفة كل شيء حول حياتي السابقة؟

- أجل، كي يمكنك اجتياز اختبار تقبل المصير، سيكون طبيعيا أن تتذكر حياتك السابقة كخطوة أولى، ولكنّ ذكرياتك ليست موجودة بدرج، هذا بنك وليس غرفة نومك! هي مهمة جدا ولذا سيكون من الساذج وضعها بمكان كذلك، إنها محجوز عليها بإحكام في إحدى تلك الصناديق، دعني ألقي نظرة.

وهل هنالك وجود للُّصوص هنا أيضا حتى يُحجَزَ عليها بإحكام؟! ما دخلُ غرفة نومي في الحديث؟ هل يُفترضُ بكلامه هذا أن يكون نكتة؟ يا لها من نكتة غير مضحكة، أستغربُ بشدة حسهم الساخر هذا. بالإضافة إلى أنه هو نفسه قال أنَّ أي فكرة وردتْ على بالي هي إشارة ربانية، ما الذي يمنع فكرة الدرج من أن تكون إحدى تلك الأفكار؟!

- هل أستطيع طرح سؤال عليك؟ لقد أخبرني آترومييل أنَّ لكل كائن عاقل برزخ خاص به وكذلك ملاك، بما أنكما الإثنان خاصان بي، لِم إذن توجد هنا صناديق كثيرة؟ ألا يجدر أن يكون هنالك صندوق واحد هنا فقط؟ يكون خاصا بذكرياتي؟

ألا يعني توفر صناديق كثيرة وجود ذكريات لأشخاص آخرين؟

- سؤال ذكي (حقيقةً قد شعرتُ بسعادةٍ وإطراءَ بالغين لهذا المدح، لو كان لي خدود لاحمرت من فورها). القليل فقط من ينتبه إلى هذا الأمر، وذلك راجع إلى مقدار رعبهم حين يقبلون على هاته القاعة. هم يتغاضون عن وجود الكثير من الصناديق بل ويتغافلون أيضا عن سبب تواجدهم بمفردهم على برزخهم الخاص، تفكيرهم مقتصر على معرفة مصيرهم وفقط، هل أبلوا البلاء الحسن في حياتهم السابقة أم لا. أما بخصوص سؤالك الآخر، فإنَّ الملاك الوحيد الخاص بك لحد الآن هو آترومييل وفقط، أما أنا فإنني ملاك ذاكرة خاص بالجميع، وكذلك هو البنك، يُقبلُون عليَّ فأُسلِّمهُم ذكرياتهم. أعلم أنك ستتساءل حول سبب وجود باب واحد فقط، وهو الذي قد دخلت منه لتوك، ما يعني في ظنِّكَ أنَّ جميع من يَرِدُ على هاته القاعة قد مرَّ بالضرورة على قاعة الاستقبال التي كنتَ بها أنتَ نفسك، والتي يجدر أن تكون قاعة الإستقبال الخاصة بك لوحدك وفقط. لكنني ها هنا

لأُفنّد ذلك؛ إنّ هذا الباب هو نفس الباب لعدّة أبعاد مختلفة خاصة بقاعات استقبال أخرى لآخرين. أراكَ قد بدأتْ تختلط عليك الأمور، لا تشغل بالك، اهتمَّ حاليا فقط بكيفية اجتياز اختبارك الخاص بتقبل المصير، حسنا، لنلقي نظرة على صندوقِكَ، هاهو: مصطفى معيوب، بشري.

- مصطفى معيوب؟ هل هذا هو اسمي؟! إذن أنا ذكر ولستُ أنثى! لكن لِمَ قلت بشري ولم تقل إنسان؟

- لأن إحدى غايات خلقكم كانت أنْ يصبح البشري إنسانا للأسف الكثير منكم لم ينجح في ذلك، بل وتعدى الأمر إلى أن أصبح البعض أسوأ مما بدأ فيه كبشري، تصنيف أدنى ما يكون من الشياطين. تفضل، هاهي ذكرياتك.

- ما هذا؟! إنك تُسلِّمُني كتابًا.

- وماذا ظننته سيكون؟ فيلما؟! لاشيء يجمع الذكريات ويخزن المعلومات أفضل من كتاب، كل ما عليك فعله هو أنْ تفكر بإمساكه وتدخلَ تلك الغرفة كي تبدأ اجتياز الاختبار.

غريبٌ منحى هاته الأحداث، برزخ عظيم لكائن واحد فقط ملائكة ساخرة متشابهة بهالات مختلفة، نفس الباب لعدة أبعاد أخرى، ليس كل بشرٍ إنسانا، ذكريات مخبأة بكتبٍ داخل صناديق معدنية زرقاء؛ لا أذكر أني كنت جيدا بالقراءة، كنت أشعر بالملل

بمجرد أن أكمل صفحة واحدة من أي كتاب كان. لكن الأمور مختلفة هنا، ربما لا وجود لشعور الملل مثلما هو الحال في البرزخ كما أنَّ هذا الكتاب ليس كأي كتاب، هو كتابُ حياتي حرفيا! كل ما مررت به أو قمت به هو مدون هنا، لاسيما تلك الذكريات التي نسيتها أو تناسيتُها وأردتُ استرجاعها سابقا، إنها هنا، في هذا الكتاب. حتى وإن كان هنالكَ وجودٌ للملل في هاته الغرفة الفسيحة فغالبا لا يُجدَرُ بي الشعور به، على العكس تماما، يجب أن أشعر بالتشوق والحماس، إنها حياتي التي سأقرأ! لنرى إذن هل كنتُ شخصا صالحا أم سيئا.

حملتُ الكتاب (لا أعلم كيف، لكنني أحمله حاليا) وما إنْ فعلت حتى شعرت بشعور غريب، وكأنَّ ذكرياتي بدأت تتدفق في شرايين روحي! كأنني حُقِنْتُ بها! أشعر بها وهي تعود إليّ! اهتماماتي أحداث حياتي، شغفي، أحزاني، أحلامي، أحبائي. لقد أحببتُ الناس، الموسيقى، الفنون بمختلف فروعها، المعرفة بشكل عام التاريخ وإن كان في معظم أوقاته مزورا، جنون الفيزياء، عشق الوثائقيات، حب كرة القدم والقراءة بشكل أقل، تمضية الوقت مع الأصدقاء، يبدو أنَّ حياتي كانت رائعة!

مع عودة ذكرياتي التي سعدتُ باستعادتها أعقبَها مباشرةً اختفاء ميموريبل من أمام ناظري، كأنّ الحيلة تقول أنه عليَّ اجتياز هذا الاختبار بمفردي، يا هل ترى سيعود الملاك مجددا إن

أنا نجحت في تقبل مصيري؟ لا أدري، ربما يحدث ذلك. بدأت بإمعان النظر في الكتاب شاعرًا باليوفوريا الطاغية ومتفحصا إياه مطولا؛ كتاب قديم ذو غلافٍ أخضر قاتم وزخارف ذهبية، كتحفة فنية تكسوها طبقة من الذهب. يبدو أنَّ للفن وجودًا هنا أيضا آه كم عشقْتُ الفن. إن مقدمة الكتاب تحمل اسمي وحيدا كعنوان في الوسط. العجيب أنه مدونٌ بلغة الآخرة، والأعجبُ أنني أستطيع قراءتها بطلاقة وكأنَّ ليَ اطلاع سابق بها. حجم الكتاب كبير وصفحاته كثيرة، من كثرتها يبدو للوهلة الأولى أنني عَمَّرتُ طويلا ومررتُ بالكثير من الأحداث والتجارب. عليَّ فتحُ الكتاب لمعرفتها بالتفصيل، لنرى ما الذي ستخبره إيانا الصفحة الأولى.

"مصطفى معيوب، ذكر، أربع وسبعون سنة، مؤمن، متزوج خمس أولاد، يتيم الأب، أستاذ جامعي متقاعد، نسبة الأنسنة: 74% "

إذن هذا هو ملخص حياتك الأولي، ما يهم حقا هو إسمك التعريفي جنسك، حالة إيمانك، حالتك الإجتماعية وعملك الذي زاولته طيلة عمرك. ظننتُ أنه سيكون لأصلي أو جنسيتي قيمة وأهمية وذكرٌ لهما ولكن لاشيء مشابه هنا، على العكس تماما توجد نسبة لم ينتبه إليها الكثير منا أنذاك؛ درجة إنسانيتنا كبشر، سأكمل القراءة لأفهم ماذا تعنيه هاته النسبة، ولنرى فيما أخطأت وفيما أصبت.

قد تبين أنني قد تزوجتُ سابقا، اسم امرأتي هو جميلة، هي لا تزال ماكثة بذاك العالم، وهي أمٌّ لأولادنا الخمس، ثلاث بنات أكبرهن سارة ثم ليلى ونادية، وولدان هما أحمد وأصغرهم جميعا قاسم، كلهم بصحة جيدة. أمي توفيت قبلي بعشرين سنة، أما عن أبي فلم أعرفه يوما، وحتى أخواي الإثنين المتوفيين قبلي لم يسبقْ وأن عرفهُ أحدٌ منهم.

وجدتُ عبارة على هامش الكتاب تقول أنهم أبلغوني عن حالة أسرتي فقط كي أشعر بالإطمئنان، كما أنه سيتسنى لي الإطلاع على حيواتهم لاحقا إنْ أنا أحسنت اجتياز الاختبار والحساب، أما

عن أمي وأبي وإخوتي فقد ألتقيهم أيضا بعد أن ينتهي كل شيء وهذا دافعٌ آخرُ لي كي أبذل الجهد الكافي لاجتيازه بطريقة سلسة كي يلتمَّ عائلتي من جديد.

عملي الذي اشتغلته كان أستاذ علوم فيزيائية في الجامعة هذا يفسِّر إذن لِمَ أستعين بالقوانين الفيزيائية كثيرا في أحاديثي وعدم نسياني لها! مدونٌ أيضا أنَّ طلبتي كانوا يُقدرونني باحترام شديد وقد شعرَ أغلبهم بالحزن لسماع خبر وفاتي، بل وأنَّ عددا لا بأس منهم قد حضر جنازتي رُغم مرور سنوات عدة على تدريسي إياهم أشعر بالسعادة كوني كنت محبوبا بينهم.

ذِكرُ جنازتي جعلني أتذكر جسدي الميت. لقد تم دفنُ جثتي في تابوت خشبي، تماما كما أردت. أما عن ميتتي لم تكن نتيجة اغتيال أو حادث مرور أو إصابة بفيروس معدٍ، وحتما لم تكن انتحارا، أو ربما كانت كذلك بطريقة غير مباشرة، لأنها كانت جراء ورم سرطاني خفي انتهش رئتين لم تعودا قادرتين على تحمل سيجارة واحدة أخرى. لقد كنت شخصا شرها للسجائر، ورغم نوبات السعال الحادة المتكررة وأزمات التنفس المضطربة إلا أنَّ اصراري على عدم التوقف عن التدخين كان أقوى منها. واو، يا لها من قوة مطلقة زائفة وغير مفيدة. ما أخشاه فقط هو أن يتم محاسبتي كوني منتحرا عن سبق اصرار وترصد، لأنني فعلتُ ذلك عن قناعة كبيرة مني عالماً مسبقا بعاقبة الأمر الغير سليمة.

أمّا عن حالتي الإيمانية فقد تبيّنَ أنني كنت مؤمنا بالإله الحمد له على ذلك، لا أعلم على وجه الخصوص إن كان إيمانا وراثيا أو مكتسبا ولكن العبرة بالخواتيم، مكتوبٌ أنني مررت بفترات شكٍّ كثيرة طيلة حياتي ولكنني أسلمتُ أمري في نهايتها إلى وجود إله مدبّرٍ لكل شيء، تخصصي الدراسي أعانني كثيرا على التسليم، وإيمانُ أمي كذلك، كما أن سيرَ أحداثٍ متفرقة جعلني أؤمن بوجود يدٍ عليا في كل شيء يحدث في ذلك الكون.

درجة الإنسانية لدّي مرتفعة بعض الشيء! أربع وسبعون من مئة ليست درجة سيئة على الإطلاق. لكن ما الذي جعلها هكذا يا ترى؟ ماهي معاييرها؟ مدوَّنٌ أنني كنت إنسانا أكثر من كوني بشرا، كنتُ أمارسُ الخيروأتناساه، كنتُ شخصا صادقا مع نفسي ومع الآخرين، كما كنت أعيرهم وقتي واهتمامي دون أي مقابل. أستمع إلى مشاغلهم، أحاول مساعدتهم، فقط كي أضع ابتسامة على وجوههم، أو لأريهم أنني كنت موجودا هنالك بجانبهم حتى وإن لم يكن بيدي حيلة لمعونتهم، خصوصا منهم طلبتي لأنني أمضيت جلَّ عُمُري في الجامعة. التقيتُ أصنافًا كثيرة من الناس كنت تحديدا أواجه الذين حاولوا أذيتي. لقد كنت محقا في الأخير إنَّ الحل لِمَنْ يتعمدون أذيتك هو مواجهتهم، مهما آل إليه الأمر لأنه لن يكون أسوأ مما قد يؤول إليه إن لم تفعل ذلك، هم

سيستمرون فقط في أذيتك، وحاول في نفس الوقت عدم أذيَّة الآخرين.

لكننّي في نسبة 26% المتبقية فشلتُ في اكتساب الإنسانية أكثرَ لأنني كنت شخصا مزَّاحا ضحوكا كما ظننت، كنت شخصا ساخرا باستمرار، البعضُ ممن كنت أسخر منهم بلطف كانوا يتقبلون مزحاتي ولكن كانت هنالك فئة لم تفعل لأنَّ سخريتي كانت أبعد ما تكون عن اللطف، منهم طلبة جامعيين سخرت منهم أمام ذويهم ما جعلهم يتأذون في دواخلهم دون أي شكوى علنية من شخصي مخافة أن يعودَ عليهم ذلك بالسلب في تنقيطي إياهم.

إنَّ أحدَ الذين سخرت منهم بشكل غير مباشر هو ابني الأكبر! أحمد لم يغفر لي يوما سخريتي من قدرته على أن يصبح فنانا موسيقيا لأنني ظننتُ أنذاك أنه لن يكون بإمكانه أكلُ عيشٍ من مهنة كتلك، هو ليس سعيدا بعمله الحالي كمحاسب مالي وأُعتَبَرُ مسؤولا رئيسيا بدرجة أولى عن ذلك. كان الأجدر مني أن أدعمه في سعيه لتحقيق حلمه، كان ليكون سعيدا الآن لولا أنني كنت أفكر بدخله السنوي أكثرَ مما بداخله، أكثر من سعادته بذاته أرجو أن يكون قد سامحني لأنني أردتُ ما رأيته الأفضل له فحسب، كل ما يريده الأب لابنه هو أن يكون بحال أحسن منه ولو كان ذلك بطريقة خاطئة في غالب الأحيان.

لقد أخذني الموت وابني مستاءٌ تجاهي، ما عاقبة هذا يا ترى؟ أشعر بالحزن لأنه كذلك، أتمنى لو أنني أستطيع الرجوع إلى البرزخ كي أجد طريقة ما أو ثغرة خفية أعود بها إلى ذلك العالم، فقط كي أطلب الصفح منه عما اقترفته بحقه، والعفو من الذين جرحتُ مشاعرهم عن قصد أو غير قصد، لكن لا أظن هذا سهل المنال، بل لَربما مستحيل، حسنا هذا مستحيل. إذن ستكون أمنيتي أقلُّ استحالة وأكثر احتمالية للتحقيق، أتمنى أن أكون قادرا على زيارتهم في أحلامهم كي أبلغهم أسفي، عسى أن يبعث فيهم ذلك وإيايَ بعضا من الطمأنينة والسكينة.

سأقلب المزيد من الصفحات عسى أن أتذكر المزيد من أحداث حياتي، مما رأيتُ إلى حد الآن أنَّ الأخيرة في مجملها كانت حياة سعيدة، إنتاجية، قد كنت سببا في تعلُّم الكثير من الأشخاص قد أحْدَثتُ بعضًا من الفرق الجيد في العالم. لِمَ وصف إذن ميموريل هذا الإختبار بالصعب؟ آه صحيح، أين هو الإختبار من كل هذا؟! إلى حد الآن أنا متقبل بصدر رحب لكل ماهو مدون هنا حسنا ليسَ كل شيء، لكن أغلبُ ما فيه. هل هذا يعني أنني اجتزت الإختبار؟ كما أنّ درجة أنسنتي هي درجة جد مقبولة أظنها قد تسنح لي بمغادرة هذه القاعة، لكن لاشيء حقا قد حدث، لَمْ يظهر لا ميموريل ولا آتروميل ولا أي ملاك آخر، إذن أنا لم أُختَبَرْ بعد، أنا فقط كنتُ أستذكر بعضا مما عشته.

يبدو أن التّسرع كان ولا يزال وربما سيبقى دوما سمة من سماتي، أنا لم أكمل حتى قراءة الكتاب وقد بدأت مسبقا في استنتاجاتي السابقة لأوانها، سأرى ما الخطأ فيما فعلت. استأنفت القراءة وانغمست في الأحداث المفصلة على عكس الملخص الأولي، بدأت بعضُ قراراتي الخاطئة بالظهور شيئا فشيئا وكلما قرأت أكثر كلما ازداد ظهورها، خصوصا تلك التي كنت فيها عنيدا عن الرجوع عنها.

وصلت بعد قراءة جل الكتاب إلى جزء خاص في نهايته لربما يكون الأخير لأنه لم يتبقَّ الكثير من الصفحات، هذا الجزء يسمى "القدر"، تصفحت افتتاحيته فإذا به سردٌ لأحداثٍ كثيرة كنت فيها ناقما على القدر بشكل متكرر، أخصُّ بالذكرِ منها فراق حبيبتي الأولى، عدم هجرتي إلى بلد أجنبي، اختبار شعور أخذ السيجارة الأولى، موت أبي المبكر وعدم حصولي على فرصة التعرف به واختبار شعور أن يكون لك والد. كنت ناقما بشكل لا يوصف على كون أمي اضطُرَّت للعمل لساعات طويلة في منازل الآخرين كي توفر لي ولإخوتي الطعام والملبس وتكاليف الدراسة فقط لكونها فضلت أن تبقى أرملة ورفضت الزواج مرة ثانية من أي كان. كنت أقول دوما أنه لو لم يَمُتْ أبي لكانت حياتنا مختلفة بشكل أفضل، لكانت أمي ماكثة بالبيت معتنية به وبنا كأسرة لما

تعرضَتْ لكل ذاك الشقاء الذي تعرضَت إليه دون أبي، ولما كان إحساس اليتمِ قد قهرنا أنا وإخوتي طيلة حيواتنا.

نقمٌ أحسست به مذ كنت صغيرا، وكبر معي دوما إلى أن توفيتْ أمي. كان هذا النقم أحد أسباب شكّي الأولى في وجود الإله من عدمه. ما الغرض إذن من وجوده إن لم يقدم المساعدة لأمي المسكينة المُبْتلاة طيلة حياتها؟ الغريب في الأمر أنَّ أمي نفسها كانت مؤمنة بالإله أكثر مما كنت أنا، أو مما كان إخوتي عليه. رُغمَ أنها كانت أكثرنا تعرضا للشقاء والابتلاء، إلا أنها كانت تدعو وترجو دوما أن يُفرِّجَ الرّب همومنا ويسدد خطانا ويحمي أبناءها ويرزقهم قدرا أفضل من قدرها هي. كانت حريصة على الصلاة في أوقاتها المحددة بحذر وقراءة الكتاب السماوي بشكل يومي في فترات راحتها. كان إيمانها عميقا جدا وظنها بخالقها متينا لا تزعزعه الأوقات الصعبة. إنَّ إيمان أمي بدون أدنى شك كان أحد أسباب تراجعي الرئيسية عن فكرة الشك تلك بوجود الإله من عدمه.

ريثما انتهيت من تذكر نقمي على القدر أخذُهُ أبي منا وقلبت الصفحة، حتى فوجئتُ بعديد الصفحات التالية والطافحة بسيناريوهات مغايرة لِمَا حدث في حياتي، ماذا لو أنَّ أبي كان حيا ولم يمُت؟ هل كانت كما كنت أظن أنها ستكون أفضل؟ كانت هنالك سيناريوهات عديدة مختلفة عن ذلك الذي حدث، وليس مجرد سيناريو واحد مخالف، كان يمكن أن تحدث الكثير من

الأقدار الأخرى. السيناريو الأول الذي وقعت عيناي (المزعومتان) عليه قال بأنَّ أبي كان سيفشل في تحمل ضغوط الحياة على عكس أمي، كان ليصبح شخصا مدمنا سكيرا همه الوحيد أن يجد ما يسد به رمقه من الخمر، وإن لم يجد فجزاؤنا نحن الأولاد ووالدتنا الضرب المبرح كبادرة تنفيس على غضبه العارم تجاه الحياة. كان سيوقفنا أنا وإخوتي عن الدراسة كي نعمل كمساعدي بنائين لدى أحد مقاولي الأشغال المعمارية، ويقبض ثمن تعبنا ليقتني به ما يسد به رمقه من الخمر. كان سينتهي بنا الأمر على تلك الشاكلة طيلة حياتنا، العمل لدى الآخرين. إثنان منا كانا سينتهجان نفس طريقه كرد فعل منتقم، شرب الخمر والتنفيس عن الغضب بأي طريقة ممكنة لنسيان الهموم. أما عن والدنا فلو عهدناه على تلك الحالة لتمنينا موته مباشرة، فقط كي نستريح من شرِّهِ وأذاه، وهو ما حدث واقعا فيما اختاره القدر لنا، دون أن نصل إلى تلك النقطة المخجلة والتي نتمنى فيها ذلك بأنفسنا. القدر أراد أن يحدث ما حدث، وعلى العكس من تمني موته في قدرنا الحقيقي كنا ندعو له بالرحمة دائما، بل وكانت أمي تصفه بالشخص الجيد الذي أراد كل خير الدنيا لعائلته، وتخفي عنا صفاته السيئة فقط لكي تحببه إلى قلوبنا.

السيناريو الثاني صرَّح أنَّ أبي كان لينجح نجاحا باهرا في تجارةٍ كان عازما على ممارستها، تجارة رابحة كانت ستجعله أبغض شخص في حيواتنا، كان ليكونَ شخصا مغرورًا محبًّا للمال بخيلا به على عائلته، منفقا إياه على شرهه واشتهائه لبنات الهوى الفتيَّات. وضعٌ كان ليجعل من أمي تطلبُ الطلاق منه بغية إعادة الزواج من شخص آخر، شخص يعتني بها و بأولادها كما ينبغي.

الغريب في الأمر أن كلاهما كانا ليعيدا الزواج دون أن يدريا أنهما سيفشلان مرة أخرى، أبي كان ليخسر تجارته وكل أمواله في دعوة طلاق من زوجته الثانية، وأمي كانت لتفشل في زيجتها لأنَّ زوجها الثاني طمع في أموالها المكتسبة نتيجة إرثٍ غنمته من وفاة جدها كونها قريبته الوحيدة المتبقية على قيد الحياة بعده. زيجتان كانتا لتمقتاننا نحن الأولاد وتعتبراننا عبئا ثقيلا عليهما وتحصيلا حاصل لفشل علاقة مؤكد. كما أنَّ نفس الأمر كان سينطبق على دراستنا، كان جميعنا سيتوقف عن الدراسة كي يبدأ الاعتماد على نفسه، عني أنا كنت سأكون نجارا رغم أنني كنت أعشق الفكر الفيزيائي، لكن تكاليف الجامعة كانت لتثنيني عن إنتهاج دراستها.

السيناريو الثالث قال أنَّ أبي كان سيكون كما تخيلته دوما إنسانا رائعا ومجتهدا في توفير الحنان وقوت الحياة لنا، يحب أمي ويحبنا جميعا. كان ليحثنا ونحن صغار على إكمال الدراسة مهما

كلّفَ الأمر من عناء، ورغم صعوبات الحياة والفقر الذي كان يهددنا يوميا إلا أننا كنا سنكون سعداء بشدة يحسدنا عليها الجميع. إلى أن يحدث في إحدى المرات العديدة التي يصطحبُنا فيها نحن ووالدتنا دوريا لزيارة عائلتها في الريف، وبينما نحن في الطريق نكون قد تعرضنا إلى حادث مميت لم يكن لينجو منه سوى أخانا الأصغر فقط. والذي كان ليشقى متنقلا فيما تبقى من عمره الفتي بين دور الأيتام وإيجاد العائلات التي تكفل رعايته ويُنهِيَ حياته لاحقا شابا بالانتحار شنقا، بعد أنْ يكون قد فقد الرغبة فيها جراء شعوره بالوحدة والعزلة والقهر لفقداننا نحن.

هاته السيناريوهات كانت فيما يخص حالة أبي، أما عن تلك التي كانت لتحدثَ لو أنني لم أفترق عن حبيبتي الأولى، وقمت بالهجرة إلى بلد أجنبي، وامتنعت عن أخذ سيجارتي الأولى، فإنَّ الزواج بتلك الحبيبة لم يكن ليكون بتلك السعادة التي ظننتها. على العكس تماما، كان ذلك ليغرقنا أنا وهي في كآبة متجددة دورية بسبب نشأة وظهور خلافات كامنة متخفية لم تكن لتطفو سوى بعد سنة بالضبط من الزواج، بعد أن يتعرف بعضنا البعض أكثر على جوانبنا المظلمة والتي لم نكن لندريَ عنها شيئا حتى يقترن أحدنا بالآخر. وكان ولدنا الوحيد ليعيش طفولة مزرية متقلبة المزاج نتيجة شجاراتنا اليومية الروتينية وصراخنا المتكرر، وكان سينتهي به المطاف إلى نبذ العالم كله ومحاولة الإنتقام من

الحياة بأن يُمسي مستهلك ومروج مخدرات في الحي الذي نقطن به.

هجرتي إلى بلد أجنبي كانت ستجعل من درجة إنسانيتي متدنية للغاية، كنت لأصبح شخصا ماديا بامتياز، صحيحٌ أنني كنت سأنجح في أن أكون أستاذ فيزياء جامعي، لكن كل ما كان سيهمني هو الحصول على الترقيات والأموال والسيارات الفارهة والمنازل والنساء ونشر الورقات العلمية المسروقة من نظرائي من الأساتذة والمزيد المزيد من الأموال، وبأي طرق كانت، أخلاقية أو غير أخلاقية إن استدعى الأمر. كانت نهاية هذا التوجه أن أتعرض إلى عقوبة قاسية مفادها الفصل من منصبي كأستاذ وإسقاط هذا اللقب عني، لم تكن أي مؤسسة تعليمية في الدنيا لتقبل بتوظيفي بعد الفضيحة التي انتشرت بخصوصي والتي مفادها أني ارتكبتُ سرقاتٍ علمية عديدة ونسبتها إلى شخصي.

سيجارتي الأولى كانت سببا في أنني بدأت التدخين، جليٌّ أنني قد توفيت بسببه ولكن غرابة هذا السيناريو جعلتني مصدوما بشدة، اتضح أنَّ السجائر كانت سببا رئيسيا من أسباب بلوغي سن الرابعة والسبعين! هل يمكنك تخيل هذا؟! إذ أنَّ وجودها كان أمرا ضروريا في الكثير من الشدائد التي مررت بها بسبب قدرتها على توسيع الأوعية الدموية المنغلقة جراء نوبات الغضب العديدة، ولولا أنني كنت أتفادى التعرض لأزمات صحية بأخذ

سيجارة في كل مرة كنتُ أتعصبُ فيها، لكانت المنية قد وافتني في منتصف الثلاثينات بسبب انسداد شراييني نتيجة توتر عصبي هستيري أعْقَبَ خلافًا عائليًا!

بعد قراءة الكثير والكثير من السيناريوهات المتاحة، بدأت تلوح لي في الأفق مقارنات بين ما قرأتُ وما عشتْ، وأصبحت أكثر اقتناعا بأنَّ قدرنا الذي عشناه كان أفضل سيناريو إن جاز التعبير، رغم شقائنا السطحي إلا أنّه كان أفضل من أي احتمال آخر.

تعدَّدَ ظهور نقمات أخرى غير نقمة اليتم وفراق الحبيبة الأولى وعدم الهجرة والسيجارة، تعددت النقمات التي شعرت بها تجاه القدر وتعددت أكثر السيناريوهات التي أيقنت أنها لم تكن لتكون أفضل مما حدث. وأيقنت أنَّ النقم على القدر كان أمرا فارغا وغير مفيدٍ على الإطلاق، لقد حرمني العيش بسلام من أجل أشياء كنت أستميت بقوة كي تتحقق لي، لكن لم أكن لأعلم عن خلفياتها شيئا، لقد تجسد لي جهلي بوضوح وتقبلتُ بأنَّ ما عشته كان الحياة المثلى حتى وإن عُرِضَتْ عليَّ حيوات أخرى.

لا أدري لِمَ حَضرني فريدريك نيتشه لحظتها وهو القائل بوجوب محبة قدرنا شرًّا كان أم خيرا (Amor Fati) .عبارة ومبدأ كنت أهزأ به وأسخر من قائلها كلما تسنت لي الفرصة لذلك بحجة أنه هو نفسه لم يتقبل مصيره وحتما لم يُحِبَّ قدره كما اقترح

على الآخرين، ونهايته خيرُ شاهدٍ على ذلك، فكيف يكون ناصحا لهم وهو المعتنق لغير مقترحاته؟! لكنني ربما أكون أخطأت في حقه. لقد حدث معه ما يحدث مع الكثيرين حين يقترحون على الآخرين ما يرونه صوابا ولكنهم هم أنفسهم عاجزون عن تطبيق رؤياهم. إنما هذا لا يعني بالضرورة أنَّ رؤياهم هي رؤيا غير صائبة! وقد تبين هذا جليا لي، كان عليَّ أن أحب قدري كي أحظى بالسلام في داخلي، وكي أكون حسنَ الظن بإلهي وتدبيره.

ريثما أنهيت تسلسل أفكاريَ هاته وتزامنها مع نهاية الكتاب حتى بدأ ميموريل بالتشكل أمامي من جديد.

- إذن قد نجحت في اجتياز الإختبار! مباركٌ لك، يمكنك الآن مغادرة قاعة ما قبل الحساب، هل لديك أي أسئلة؟

- سؤال واحد فقط، ماذا لو لم أنجح فيه؟ ما أعنيه، ماذا كان ليحدث لو أنني لم أتقبل مصيري؟ هل فشل أُناسٌ في تجاوزه قبلي؟

- في الحقيقة هذان سؤالان وليس سؤالا واحدا فقط جوابهما بسيط. لن تغادر القاعة حتى تتقبل مصيرك على أنه أفضل ما قد حدث لك. وأجل، كثيرون هم الذين فشلوا خصوصا منهم أولئك الذين لم يؤدوا بشكل جيد في حياتهم. سأمنحك جوابا زائدا إعتبره كإضافة طفيفة من عندي على

سؤال توقعتك أن تطرحه ولم تفعل. الفشل في تقبل المصير رُغمَ اتضاح الرؤية بشكل أفضل هو مكابرة وعناد، والإطالة في ذلك في مثل هاته الأنواع من القاعات المحدودة بوقت معين قد يؤدي بك إلى الجحيم مباشرة، ستخسر فرصة عظيمة في أن تطلب الغفران من الإله وجها لوجه، بما أنَّ احتمال حدوث ذلك أعظم.

- محدودة بوقت معين؟! أنت لم تخبرني بذلك من قبل!

- لأنّ الإله لم يشأ أن يؤثرَ على صدق نتيجة اختبارك. نحن ممنوعون من الإدلاء بهذا الأمر قبيل الاختبار، لأنَّ اخباركم به قد يؤدي بكم إلى قبول مصائركم على مضض فقط لتجنب البقاء في مثل هاته القاعة وعدم المرور مباشرة إلى الجحيم، وهو ما سينسف معنى الإختبار كلية؛ يجب أن تكون حرّا وصادقا في قناعاتك، منحك الإله الحرية في الاختيار في حياتك وسيمنحك دوما الحرية في اختيار قراراتك دون أن يؤثر عليها، على الأقل ليس بالسلب. في الأخير بما أنَّ أسئلتك ليست بالكثيرة وأنَّ باب الخروج من القاعة قد ظهر، يرجى أن تتفضل بالمغادرة الآن، أتمنى لك كل التوفيق فيما تبقى من خلودكَ.

فكرة مرعبة أن تمرَّ إلى الجحيم مباشرة! دون لقاء الأحبة؟ دون معرفة الكثير من الأمور الغامضة المتبقية؟ دون معرفة الحقيقة؟ دون رؤية الإله نفسه؟ الحمد له أنني اجتزت الاختبار

عن قناعة، وأنني على وشك مغادرة هاته القاعة. أغلقت الكتاب فورا خوفا من تلك الفكرة وهممت باجتياز الباب بسرعة دون أن أسأل ميموريال حتى إن كان عليّ إعادة الكتاب أم لا، فضلا على أن أودعه!

الفصل الثالث

"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"

الآية 18 -سورة ق-

إلهي العظيم! ما هذا؟! هنالك المئات من الأبواب المفتوحة في آن واحد وخروج متزامن لمئات من الناس! لربما هم ألوف، على الأقل هذا ما استطعت تخمينه بشأن عددهم! لا أدري السبب الحقيقي وراء شعوري بالفزع، أ لمغادرة تلك القاعة أم للعدد المهول من هؤلاء البشر الذين رأيتهم في لحظة واحدة وأنا الذي لمحتُ مخلوقَيْنِ فقط قبلهم؟ أم لهاته الساحة الشاسعة والغير منتهية؟ هل هاته هي ساحة الحساب؟ بما أنَّ القاعة السابقة هي قاعة ما قبل الحساب فيجدرُ أن تكون هاته هي ساحة الحساب. لكني لا أرى غير البشر، ليس هنالك أي وجود لأي ملائكة. ماذا عن هذا الكتاب؟! يجب عليَّ إخفاؤه لكي لا يتم انتزاعه مني! ربما كان يجب أن أرجعهُ إلى الصندوق! أمَّا وقد أتيتُ به الآن، فلا سبيل إلا لإخفائه! ولكن أين أخفيه؟! كيف سأفعل ذلك؟ هل سيصلح الأمر بمجرد التفكير؟

إنَّ أمر التفكير هذا باعثٌ على الإحساس بالقوة! الحمد للرب أنَّه نجح مرة أخرى، لا أعلم أين ذهب الكتاب أو كيف أُخفِيَ ولكنه ليس بيدي الآن. لربما حين أحتاجه سأقوم باستحضاره وحسب. بدأت بإمعان النظر جيدا يميني ويساري في هالات الوجود لعلهم هم أيضا يفكرون في كيفية إخفاء كتبهم، وجدتهم قد نجحوا في ذلك أيضا. إذن أنا لستُ مميزا كما ظننت، الفكرة ليست عبقرية خالصة مني. لعليَّ أتعرّفُ على أي أحد منهم.

لا أحد، دققت كثيرا ولكنني فشلت، جميعم غرباء. من هؤلاء بالضبط؟ هل تزامن توقيت وفياتنا وبذلك تزامن توقيت خروجنا من قاعات ما قبل الحساب؟ وبما أنهم قد غادروها فهل يعني هذا أنهم نجحوا جميعهم في اجتياز اختبار المصير؟ أرى هذا احتمالا كبيرا.

استوقفني مشهد معين، الجميع متخوف من اتخاذ الخطوة الأولى. ولكن حقَّ لهم ذلك، إلى أين سيتجهون تحديدا؟! ما أمامنا إلا عدمٌ بألوان فاتحة، نعم هي ألوان بهيجة بعض الشيء ولكنها في النهاية مجرد عدم! لا شيء أمامنا بالضبط، سأحاول بدء محادثة مع هذا الذي بجانبي.

- سلامٌ عليك، أنا مصطفى، سررت بمعرفتك.
- مرحبا، أنا ناثانيال، السرور لي أنا أيضا. إذن، الآخرة؟
- أجل، يبدو كذلك، هل أنت مستغرب؟

بدأ ناثانيال بالتحديق في جميعِ من يحيطوننا، متأملا بهلع خفي في هالات الحاضرين.

- أظن ذلك، لا أعلم ما الذي يحصل هنا بالتحديد، ألم يكن يجدر بوجودنا أن يزول فور أن نموت؟ ما الذي أخطأنا فيه؟ لِمَ نحنُ أحياء؟ أين هي أجسادنا؟
- ألستَ سعيدًا بكونك على قيد الحياة؟

- على قيد الحياة؟ لازلتُ أعتقدُ أنَّ هذا هو الموت، وأنَّ الحياة هي ما كنا نعيشه سابقا. كما أنَّ أعمالي هنالك لا تدعو إلى السعادة حقا، إنها بعيدة كل البعد عن السعادة. لست فخورا كثيرا بها، خصوصا هنا.

ساد بعض الصمت بيننا، وانضممت إلى ناثانيال في التحديق في الآخرين الذين كانوا بدورهم يحدقون بنا وببعضهم البعض. بدأ التوتر يسود للصمت المطبق والمساحة الفارغة والعدد الكبير منا ومن الأبواب، ماهي الخطوة التالية يا ترى؟ طبعا لن يدوم الأمر على هاته الشاكلة، لابد من ظهور لملاكٍ ما أو ربما للإله نفسه، لكي يشرح لنا الذي علينا فعله، وهو ما حدث فعلا.

وبينما نحن في خضم تفكيرنا فيما ينتظرنا حتى سمعنا صوتا جهوريا ينادي فينا، لا نعلم على وجه الخصوص إن كان صوت الإله أو صوتاً لملاك، بدأنا بالبحث في كل الإتجاهات، يمينا ويسارا، أعلانا وأسفلنا، علّنا نجد مصدره ولكن دون جدوى.

- أيها الناس، هنيئا لكم تقبلُّ مصائركم، قد أدركتم أخيرا أنكم لم تظلموا إلا أنفسكم، وأنه كان بإمكانكم اتخاذ قرارات أفضل، وأنَّ الإبتلاءات في حيواتكم لم تكن سوى اختباراتٍ كانت لكم القدرة الكافية في اجتيازها بطريقة أسلس وأحسن، بعضكم فعل ذلك وكثيركم أخفق. ولأخذ الجزاء عن أفعالكم السابقة،

ستُحظونَ بمحاكمة عادلة حيث ستحاسبون على كل صغيرة وكبيرة فعلتموها، خيرة كانت أم شريرة، لن يُظلَمَ أي أحدٍ منكم لكل ذي حق حقه. كل واحد فيكم سيكون مصحوباً من الآن فصاعدا بملاكيه اللذان صاحَباه طيلة حياته ودوَّنا كل أعماله. الملاك الذي كان مسؤولا عن تدوين أعماله الخيرة، والآخر المسؤول عن تدوين أفعاله الشريرة. يمكنكم الآن رؤية طريق المحكمة أمامكم، بالتوفيق.

ريثما أنهى "الصوت" خطابه حتى انفتحت بوابة ضخمة من الأرضية باتجاه الأعلى محدثة ما يشبهُ الزلزال، زلزالٌ أحدَثَ في نفوسنا رعبا إضافيا للذي كنا نشعر به من الأساس. كان علينا السير نحو تلك البوابة كي يتبين لنا ما ينتظرنا. وفي أثناء الاستعداد لمكالمة ناثانيال الذي كان بيميني، حتى أصابني هلعٌ جديد من يساري، ما هاته الهلعات التي تنهال عليَّ تتابعا؟! إنه ظهور مفاجئ آخر من العدم لملاك!

- من أنت بحق الإله؟!

- ألم تسمع جيدا الذي قيل لكم؟ أنا الملاك الذي كنتُ مكلّفاً في حياتك السابقة بتدوين أعمالك الخيرة، كنا نراك دوما دون أن تكون لنا القدرة على التحدث إليك، ها قد جاءت الفرصة لذلك يا مصطفى! لقد مر وقت طويل جدا من أجل هاته اللحظة.

- كنا؟ من تقصدُ ب كنا"؟

- وأنا هو الملاك الآخر! (صرخ ملاك تدوين الأعمال السيئة من خلفي بنبرة مباغتة) سررت بمعرفتك، لا أعلم حقا إن كنت تبادلني نفس السرور.

- بهاته المباغتة؟! لا أظن أنني فاعل ذلك! خصوصا وأنك الذي كنت تدون أعمالي السيئة. ما هذا يا أصدقاء؟ ألا يستطيع أحدكم الظهور بطريقة لا تروع المرء؟ رباه كم تتسلون بجعله هلوعا!

نظرت بعدها تجاه ناثانيال والذي وجدته عابسا عُبُوسًا استسلاميا، خصوصا بعد ظهور ملاكيه. أظنه لم يستوعب بعد فكرة حياة ما بعد الموت، وأنَّ هذا كثير عليه بالنسبة إلى شخص لم يؤمن يوما بوجود حياة من هذا النوع، فما بالك بتصديق فكرة أنَّ أعماله كلها كانت تُدوَّنُ بحذافيرها وأنه سيحاسب عليها. والأكثر من ذلك أنه صرَّحَ لي منذ قليل أنه ليس فخورا للغاية بها يا ترى ما الذي فعله ليكون بهذا العبوس كله؟ رغم أنه يبدو شخصا هادئا وصالحا في جوهره. صحيح، لقد تذكرت، سأنتظر الفرصة المناسبة كي أسأله عما اختبره حين مماته، هل رأى نورا مماثلا لما رأيت؟

بدأ البعض من الأشخاص في المسير نحو البوابة المفتوحة لتوها، أمّا آخرون وهم كثر فحاولوا الهروب ولكن الملائكة الخاصة بهم قاموا بردعهم عن ذلك وأجبروهم على فعل ما فعله الأولون. رأى ناثانيال هذا الأمر يحدث أمامه وحدقّ بعدها في ملاكيه اللذان بادلاه نظرة توحي بأنه عليه ألا يكون غبيا مثلهم وأن يُسلِّم أمره طواعيةً كي تَسهُلَ العملية بينهم. وهو ما فعله الأخير على مضض ودونية، وما فعلته أنا أيضا، سلَّمتُ أمري لكن عن قناعة ودون أي شعورٍ بالدونية. على العكس تماما، أنا أريد حقا معرفة الذي سيحدث بعد أن أجتاز هاته البوابة.

- هلا تفضلنا؟
- لا أرى خيارا آخرا أمامنا، فلنفعل. قال ناثانيال.

البوابة ليست بذلك البعد الذي يحتم عليك التفكير في أمر ما حتى تبلغها، بل يمكننا ذلك في أسرع وقت. في خضم السعي نحوها اقترحتُ على ناثانيال إجراء تعارف مع الآخرين بغية تمضية الوقت ولكنه لم يحبذ الفكرة بتاتا، متحججا بأن الجميع ليسوا مثلي في مزاج للتعارف، أكثرهم يفكر حقا كيف سينتهي به الأمر ما مصيره الخالد، تماما مثله هو.

ساد الصمت بيننا مجددا واستمررنا في المشي مطبقين أفواهنا، إن صح التعبير. لا أنفك عن تذكيركم أننا مجرد هالات لا نملك أفواها، أو أجسادا! لن أعيد تذكير أيًّا كان مرة أخرى، اتفقنا؟ إننا مشغولون بعض الشيء هنا! إنني أشفق على ناثانيال، يبدو جد متحسر وتعيس، هل أسأله عن حاله لربما يمكنني التخفيف عنه قليلا؟ لكنه لا يود الكلام، أيضا ما الشيء الذي سيخفف عنك شعورك بأنَّ مصيرك غيرُ آلٍ إلى مكان مريح؟ غباء صارخ من طرفي كالمعتاد.

لم نبلغ البوابة بسرعة كما توقعت إلا بعد مدة زمنية أطول. لكن ما إن فعلنا حتى هالنا هول المشهد. رباه لم أرَيوما مكانا أكثر عملقة وضخامة وروعًا وليس روعةً من هذا! لم يسبق وأنْ شاهدتُ قط سلالم رخامية بهذا الحجم والكِبر والإنحدار؟! ولا سلاسل جبلية بهاته العظمة! إنني من هول ضخامة ما رأيت حتى عجزتُ عن نقل المشهد بحرفية. سألتقطُ الأنفاس المزعومة أولا، لربما أحاول وصف هذا "المنظر" دون انتقاص.

من أين سأبدأ؟ حسنا، هنالكَ سلالم رخامية عرضها سحيق لكي تستطيع حملَ الآلاف الواردة عليها في نفس اللحظة، هاته السلالم تتجه بشكل مائل وزاوية انحدار حادة نحو ما يبدو خطا رهيفا، لكنه في حقيقة الأمر طريق سفلي مجهري، رهافته الكامنة لارتفاعنا الشديد عن مستواه. هذا الطريق الرهيف يتوسط

سلاسل جبلية شاهقٌ ارتفاعها، ممتدة إلى أقصى ما قد يمكنُ لنظرك إبصاره. شبيهة بجبل ايفرست مكرر ومستنسخ بشكل متتالي وغير متناهي، ذو لون أسود كربوني قاتم تتخلله أنهار من الحمم البركانية شديدة الإحمرار بلون اللهب، منسابة من قمم الجبال نحو ما يشبهُ الساقية أو المجرى والتي تُعتبر سفوحا لها. وآلافُ أو عشرات الآلاف من الملائكة الضخمة المصطفة على جانبي الطريق، وكأنهم على استعداد كامل للتأكد من السير المُحكَم لعملية تنقلنا إلى المحكمة.

الذي كان ينقص هذا المشهد الأشبه بلوحة فنية مرسومة هو قطعة موسيقية ملحمية على شاكلة O fortuna من Carmina Burana لكارل أوورف حتى يغمى علينا جميعا! يمكنك رؤية أبصار الآخرين جاحظة شاخصة نحو الأسفل وكأنهم متجهون نحو الجحيم بذاته! إن لم يكن هذا هو الجحيم فعلا فكيف هي شاكلته إذن؟!

بدأت الملائكة المدونة لكل واحد منا تحثنا على الشروع في النزول بعد لحظات طويلة عجزنا فيها جميعا عن استيعاب الذي نراه، فضلا على نفعل أي شيء، مرتعدين مرتجفين متسمرين في أماكننا. في لحظة فارقة نجحتُ فيها في غض نظري عما شد أنظار الآخرين، توجهتُ به إلى يميني أينَ يكمنُ ناثانيال فإذا بي أراه شارفا على حافة الجنون! شخصٌ لم يؤمن يوما بوجود قوى

غيبية، يرى أمامه خوارقاً لعالمٍ غفل دوما عن تصوره. وحسابا وعقابا وملائكة وأصواتا وأنهارا بركانية وجنة وجحيما، وإلهاً! الإله الذي لم يملك أي صلة معه لأنه لم يؤمن بوجوده أصلا، فضلا على محاولة التواصل معه!

- ناثانيال، لا تجزع، أ فهمت؟ أنا معك لا تخف، لن أتركك بمفردك، سأكون بقربك كلما استطعت أن أفعل، فقط لا تبتعد أنتَ عني.

- أنا جد مرعوب يا مصطفى! ألستَ كذلك؟!! لم أشعر بهكذا رعب من قبل، إنه شعور جديد عليّ، لم أكن شخصًا معتادا على الخوف، ولكن هذا؟! إنه كثير! أنا لم أكن شخصا جيدا يا مصطفى! لقد ارتكبت أشياء سيئة بحق!

- لا عليك، إنَّ الرب عليم بداخلك أفضل مما عَلِمتَهُ أنت نفسكَ عنه. لربما سيغفر لك أخطاءك، لا تجزع فقط ولا تتسرع ستخبره لِمَا اقترفتَ ما اقترفت، ربما سيكون عذرك مقبولا، من يدري؟ نحن لم نصل بعد إلى قاعة الحساب، لذا علينا أن نهون على بعضنا البعض قدر الإمكان، أنا أحتاجك أيضا، أ فهمت؟

أومأ ناثانيال موافقا على كلامي وقد انقشعت بعض مخاوفه وشعر بارتياح طفيف، وشعرت أنا نفسي براحة أكثر لكوني تسببت في التخفيف عنه قليلا. لا يزال الطريق طويلا لنشعر بالهلع، لذا

عليَّ أن أُشغِلَهُ بالكلام أكثر عن الذكريات الجميلة التي لديه، وأحاول استمالته للفضفضة وإخراج ما بداخله، آمل فقط ألا تمانع ملائكتنا المدونة ذلك.

- هل يمكنني أن أسألك عن عدد درجات هاته السلالم؟ سألتُ أحد الملاكين.

- أربع ملايين درجة ونصف المليون، أجاب ملاك تدوين الأعمال الحسنة.

- ماذا؟! أربع ملايين! هل سنقطع كل هاته المسافة نزولا على الأقدام؟! متى سنصل إذا؟

- أربع ملايين ونصف المليون، لقد تناسيت النصف، سم الأمور بمسمياتها. كما أنَّك نسيت أنَّ لا أقدام لكم. ألم تكتشف بعدُ أنه لا علاقة لطول المسافة بمدة قطعها؟ ظننتك ذكيا كفاية لتكتشف ذلك بمفردك أثناء مرورك بالبرزخ، أنت تعلم، بما أنك كنت أستاذ علوم فيزيائية بارع.

في الحقيقة أنا أعلم جيدا ما الذي يقوله، ولكن ضخامة العدد الذي تفوَّهَ به لتوه جعلتني أنسى أنني اكتشفت ذلك سابقا، أربع ملايين ونصف المليون من الدرجات! يجب أن نعمل بجد وفير على أنْ نشغل أنفسنا بالكثير الكثير من التفكير وإلا فإننا لن نصل أبدا إلى المحكمة! ماذا عن ناثانيال؟ هل يعلم شيئا عن قانون التفكير

هذا؟ أظنه حتى وإن علم به لكان يودُّ أن يوقف التفكير عمدا من فوره كي لا يصل أبدا، أراهن أنه تمنى لو كان عدد درجات السلالم أضعاف التي هي عليه.

ما إن باشرنا النزول حتى انتابتني رغبة حقيقية في إجراء محادثة لا تنتهي مع أيٍّ كان. سأحاول أولا مع ناثانيال وملائكتي المدونة وإن لم يفلح الأمر فسأكلِّم أحد النازلين المهتمين أو إحدى النازلات المهتمات بتبادل الحديث، لكن دون أن أفقدَ رفقة ناثانيال، إنني أحتاج إلى الكلام.

- أودُّ سؤالك إن أمكن، ماذا اختبرت حين توفيت يا ترى؟ كيف كانت ميتتك؟

- هل يجب عليّ فعلا أن أجيب؟

- لا بأس إن لم تفعل، أستطيع أنا اخبارك بما حدث لي.

- حسنا، لن يغير من الأمر شيئا إن أنا أخبرتك، فقط لأنها ليست بالذكرى المميزة التي تود مشاركتها مع أحد ما، ولكن ربما إن فعلت سيبطل مفعولها السيء عليَّ قليلا، حسنا.

لبثَ ناثانيال على بعضٍ من السكون والصمت، ثم استأنف كلامه.

- ظننتُ في البداية أنني بصدد الإستيقاظ من حلمٍ ما لأنَّ كل شيء حدث على حين غرة. كنتُ مستلقيا في حوض حمامي

مغمورا بمياه دافئة، لم يكن دفئها بغرض الاستحمام، إنما من أجل إبقائي دافئا لحظة الشعور ببرودة الموت. كانت بجانبي رسالة وداع موضوعة فوق المغطس تحملُ كلمة وحيدة، كانت كلمة "آسف" تنتصف الورقة كلها. وعلبة أدوية كنت قد أخذت منها ما هو كافٍ لإنهاء حياتي بجرعة واحدة. انتظرت خروج عائلتي في نزهة إلى الريف وادَّعيتُ وقتها المرض، تمعنتُ جيدا في كفة يدي وهي ملآى بأقراص بيضاء صغيرة. حاولت جاهدا أن لا أفكر في أي أحد، ولكن ملامح زوجتي وأبنائي وهم يبتسمون لي بقيت تراودني عن فكرتي التي أزمعت القيام بها ولبثتْ تحاول ثني عن نواياي. عرفت لحظتها أنني إن تراجعت أنذاك فلن يكون بإمكاني فعلها مجددا. استجمعت شجاعتي أو ربما ضعفي وقمت ببلعِ كل ما تسنى لي بلعه، لم يأخذ الأمر طويلا حتى غططت في غيبوبة لم أرجع منها، كان الأمر أشبه بخروج من بابٍ ما للدخول في باب آخر، للحظة واحدة فارقة أردت الرجوع من حيث خرجت ولكن الآوان كان قد فات.

- كان انتحارا إذن..

- أثناء خروج روحي من جسدي، لم أستوعب الأمر إطلاقا بدأت بالنظر خلفي لِأُفاجأَ بجسدي مرميا في حوض استحمام. كان غريبا، أن ترى نفسك كجثة ملقاة في ركنٍ ما وأنت مغمورٌ

بالمياه. لم يكن أي أحد بجانبي، كان يبدو كجسدٍ لمدمن مخدرات فارق الحياة بسبب جرعة زائدة. شعرت بالحزن لكوني غادرت ذاك العالم وحيدا، خصوصا وأنَّ قرار الموت كان قراري أنا، لقد قررت أن أموت وحيدا رغمَ أنني كنتُ أمتلك أسرة!

- في الحقيقة، أنتَ لم تكن وحيدا (أشرتُ ببصري إلى ملاكيه المُدَوِّنَيْنِ اللذان يبدوان على وفاق مع الملاكين الخاصيين بي) لقد كانا هنالك. حسنا، ماذا عن النور؟ هل رأيتَ نورا؟

- نور؟ عن أي نور تتحدث؟ لم يكن هنالك سوى بابان كما قلت، كأنني خرجت من عالمٍ كي أنتقل إلى...هنا، كان أمرا صادما لي، لم أظن يوما أنني يمكن أن أوجَدَ خارج جسدي، كنتُ أبغي العدم واللاوعي.

- لكن ما الذي جعلكَ تُقدِمُ على فعل كهذا؟

- لقد فقدت الرغبة في الحياة يا مصطفى، لم أكن أجدُ معنًى لها، حاولتُ جاهدا أن أفعل ولكن هيهات. زرتُ العديد من الأطباء النفسانيين، لم ينجح أيُّ أحدٍ منهم في قدح شرارة العيش في داخلي، كلُّ ما كانوا يفعلونه هو استنزاف المال بشراهة والتأكيد على وجوب تكرار الزيارة إليهم بشكل دوري بغية تزويدي بالأقراص المضادة للإكتئاب. في البداية، نجحت الأخيرة في منحي بعض الشعور المريح، لكن مع مرور الوقت أصبحَ مفعولها واهيا يقلُّ مع

كل مرة كنتُ أضعُ فيها قرصا جديدا بفمي. زوجتي لم تكن تعلمُ شيئا عن موضوعِ الإكتئاب هذا ولا زيارة الأطباء.

- ألستَ نادما على قرار إنهاء حياتك؟ أعني، ما الذي تشعر به الآن؟ هل وجدت معنى حين فعلتَ فِعلَتكَ؟

- كما قلت منذ قليل، أنا لم أكن أقصد إيجاد المعنى حين أنهيتها، كنت أظن أنني سأنهي معاناتي وحسب، أذهب إلى عدمٍ مريح حيث لا تفكير ولا بحث ولا تساؤلات تحتاج إلى إجابات، لكن يبدو أنني فشلت.

- هل لكَ أن تصفَ لي عائلتك؟ (شعرتُ بحزن ناثانيال الطافح فور ذكر عائلته)

- آه لو يعلمون كم أشتاق إليهم... إنهم رائعون، كلٌّ على حدى. وجه ميلاني الصغيرة المشرق وابتسامة جيري المشاغب. لقد كانا ينتظراني في كل مرة أعود فيها من العمل، كانت تلك اللحظة هي أجمل لحظة في يومي كله، كان مفعولها عليَّ أشدَّ وأكثر فائدة من كل تلك الأقراص اللعينة. كنتُ أغدقُ عليهم بالسكاكر والحلويات، لم أكن أعلمُ إن كانا ينتظرانِ والدهما حقا أم تلك الحصة اليومية من المشتهيات، لكنني كنتُ سعيدا للغاية بردة فعلهما تلك حين رؤيتي أنزلُ من باب السيارة. من سيشتريها لهم الآن؟ من؟ والدتهما؟ هي نفسها تحتاج إلى من يعتني بها. لا أودُّ أن

أتخيل هلعهم حين عادوا من رحلتهم ووجدوا جثة عائلهم الوحيد هامدة، من سيعولهم؟ لا يملكون عائلا غيري! لقد تركتُ عائلتي ورائي يا مصطفى، لقد اقترفت أمرا لا يغتفر!

- أرأيت يا ناثانيال؟ رؤيتك كانت ولا تزال مشوهة إلى حد اللحظة، أنت رأيت نفسك بنظرة مادية بحت، كونك كنتَ مصدرَ دخل لعائلتك وفقط. أنت لم تكن ترى ثقلك المعنوي الذي كنت تمثله لهم، لقد كنتَ مصدرا لعواطفهم الجميلة، لحبهم النقي للحياة، لرغبتهم في تلقي العناية المشددة من لدنك، لهذا لم تكن تجد أيَّ معنًى من تلك الحياة. الرب كان ولا يزال وسيكون هو كفيلُ عائلتكَ وكل عوائل ذلك العالم، كفيلُ العاقل والغير عاقل وهو عائلهم الوحيد، أنت وأنا لم نكن إلا وسائل وأسباب لذلك. أنت لم تكن مجرد عائل بالنسبة لعائلتك يا ناثانيال، لقد كنت أبا لهم! كنت السند الذي يحتاجونه حين يهمون بالسقوط، كان هذا هو المعنى منك ومن حياتك، أن تُحدِثَ فرقا في حياة أحدٍ ما لهو المعنى من كل تلك الحيوات في ذلك العالم، لقد فشلتَ في رؤية الفرق الذي كنت تُمثِّلهُ في حياة عائلتك.

- هل سيظلُّ حبهم قائما لي؟ رُغمَ خذلاني لهم؟

- الحب النقي هو ذاك الذي يظل قائما تجاه الشخص الذي خذلك بالتحديد، لأنه أعطاك سببا وجيها كي تتوقف عن

حبه، ولكنك لم تفعل لأنك لم ترَ ولا تزال ترى إلا الخير الكامن بداخله. لا تقلق، هم سيحبونك دوما وستبقى في ذكراهم ذاك الأب الذي كانوا ينتظرونه متلهفين حين عودته من العمل.

- لا أعلم حقا كيف أشكركَ يا مصطفى، أين كان أمثالك في حياتي حين احتجتهم؟

- لم يكونوا بعيدين حقا، فقط لو أمعنت النظر جيدا لوجدتَ أنَّ الربَّ قد أغدقَ عليك بالكثيرين منهم. أمَّا عن طريقة شكري، فأتمنى حقا أن تُحسِنَ الظنَّ بالإله، كما قلت لك سابقا ربما سيغفر لك فقط إن أنت أحسنتَ الظن وكنت متفائلا، أبق ثقتكَ قائمة به.

- كيف سيغفرُ لي وأنا لم أؤمن به قط؟

- أنا لا أعلم كيف تحديدا، ولكنه إلهٌ في النهاية، وهو على كل شيء قدير، تماما مثلما كان قادرا على أن يخلق مثل هاته الجبال العاتية، هو قادرٌ على أن يغفر ذنوبا قد تصلُ إلى عنان السماء (من أين لي بهاته العبارة تحديدا؟ أشعر وكأنني استقيتها من مكان آخر). كما أنَّ موازينه تختلف عن موازيننا، هاته الجزئية فقط قادرة على تغيير كل شيء. سأعطيك مثالا علَّهُ يوضح لك الأمر قليلا. فلنضع مقارنة بين شخصين، فلنسمي الشخص الأول "حسن" والشخص الثاني "شقي". نشأ حسن في

بيئة سليمة، المغريات فيها ضئيلة، والملهيات فيها نادرة، لكنه يمارسُ معصية واحدة محددة وبشكل دوري، رغم أنَّ لاشيء يدعوه لذلك حقا. أما عن شقي فهو شخصٌ نشأ في بيئة طافحة بالإغراءات الرنانة، والمشتهيات المتاحة بطرقٍ وفيرة ورخيصة حتى لا نقول مجانية. شقي يستغل بعض تلك المشتهيات ليقوم ببعض المعاصي ولكن على استحياء، يفعلها اليوم ويقاوم نفسه على أن لا يفعلها غدا، وهلمَّ جر. لو أجرينا مقارنة سطحية هنا، ستجدُ أنَّ الجميع سيجزمُ أنَّ حسن أفضلُ من شقي، باعتبار أنَّ جُلَّ ما اقتصر عليه فعلُ حسن هو معصية واحدة فحسب. أما شقي فعصاياه متعددة، وبذلك يكون حسن خيرا منه. بناءً على الرياضيات طبعا.

- وهل يكون للإله رؤية أخرى غير هاته التي رآها الجميع؟

- أجل، قد يكون ذلك، تعلمُ لماذا؟ لأنه لو أتيح لحسن كل ما أتيح لشقي من مشتهيات ومغريات، لربما فعلَ أضعافا مضاعفة من الذي قام به الأخير. ولربما لو أنَّ شقي نشأ في بيئة حسن المثالية والخالية من المشتهيات، لما قام بأي معصية، حتى تلك المعصية الوحيدة التي واضب عليها حسن دوما. إنَّ الحساب قد يكون حسب ما أتيحَ لك. استنادا إلى هذا الميزان، قد يكون شقي أفضلَ من حسن. أتمنى أن تكون قد فهمتَ نقطتي، مع أنها

قد تكون خاطئة. لا علينا، المهم أنه في بقية الطريق إلى المحكمة علينا أن نحسن الظن ونتفاءل لعلنا نُحظى بمصير غير الذي نتوقع.

استمر سيرنا على تلك الحال مدة جد طويلة دون أن نبلغ المحكمة، حتى بعد أن اجتزنا كل السلالم ووصلنا إلى بداية الطريق فضي الأرضية السيراميكية، والذي كان عرضه يتسع ويصبح أكثر شساعة في كل مرة نزلنا فيها درجة إضافية. اضطررنا بعدها إلى السير أضعافا مضاعفة من تلك المسافة التي قطعناها على السلالم. حاولنا أنا وناثانيال اختصارها قدر الإمكان بالتفكير وتبادل الأحاديث والحكايا عن حيواتنا. اكتشفت جانبا مرحا فيه لا أدري حقا كيف ينتهي المطاف بأشخاص مثله بهكذا حس من الفكاهة إلى الانتحار! واكتشفَ هو فيَّ نزعتي إلى تفسير الأشياء فزيائيا، خصوصا حين كنا ننظر يمنة ويسرة في عجب وذهول إلى تلك الجبال ذات الأخاديد البركانية، والسماء الشبيهة بسقف مرشوش بزخاريف سيانية كهرمانية، لم تكن سماءًا فعلية، كانت أشبه في طبيعتها بذاك السقف الذي ارتطمتُ به سابقا في البرزخ.

لكن الذي أدهشنا حقيقة هو محاولة النظر إلى خلفنا بغية تخمين المسافة التي قطعناها، وكأنّ بتعملقِ السلالم تضاعف مرتين لحظة مشاهدتها من الأسفل إلى الأعلى. لم ندرِ حقا إن

كانت مجرد خدعة بصرية أم أنَّ الأمر كان حقيقيا، لقد بدت وكأنها سلالم نحو اللانهاية، كدنا أنْ لا نُصدِّق أننا أتينا من فوق!

- خلق الرب لا مثيل له، سواءً في طبيعته أو أحجامه أو تناسق ألوانه. الرب فنان يا ناثانيال، وهذا سبب آخر أنني تراجعتُ عن شكي في وجوده، لم أصدق يوما أنَّ مثل ذلك الكون بمثل تلك النزعة الفنية الدقيقة قد أُوجدَ من عدم. تماما كأن تزعمَ أنَّ تمثال داوود لليوناردو دا فينشي قد صُنِعَ من تلقاء نفسه، أو أنَّ مقطوعة كلود ديبوسي ضوءُ القمر خلقتْ نوتاتها بمفردها.

- أنت نفسُكَ كنتَ شكاكا في وجود الإله؟!

- من ذا الذي لم يفعل؟! حتى الأنبياء أنفسهم فعلوا! الأطفال في جوهرهم أيضا شكاكون. إنَّ الشك كان دوما الطريق الأوحد للحقيقة، هو فطرةٌ في داخل البشر، وما غيرهُ هو قناعات موروثة ومزيفة فحسب.

- كيف أمكنني أن أغفل عن مثل ملاحظاتك هاته من قبل؟

- اسمع يا ناثانيال، على ذكر الملاحظات، ألم تلاحظ شيئا؟

- ماذا؟

- لقد كان عددنا أكبر بكثير مما نحن عليه الآن، ألا تظن ذلك؟

- فعلا! كان هنالك الكثير من الهالات التي رأيتها فور الخروج من قاعة ما قبل الحساب، ولكن لم يعد لها أثر!

- وكأننا بطيئون للغاية مقارنة بهم، اسمع أيها الملاك، ما الذي يحدث هنا؟

- كل ما في الأمر أنَّ من يريد الوصول بسرعة سيتأخر عن ذلك غصبا عنه، والعكس صحيح، كل من يريد أن يتأخر عن الوصول باكرا سيصل أسرع من الآخرين. قال الملاك.

- ماذا عن ناثانيال؟ هو لم يكن يريد الوصول إلى المحكمة ولكنه ها هنا أمامي، لم تختلف سرعاتنا رغم اختلاف رغباتنا، ما السبب؟

- اسأله هو، في بادئ الأمر كان سيسبقك عن غير قصد، لم تكنْ نية ذلك لتكون لا منك ولا منه. ولكنه ريثما استمع إلى خطاباتك المطمئنة لم يعد يمانع الوصول إلى المحكمة، ما يفسر تقارب سرعاتكم. يمكنك القول أنَّ القوانين الخاصة بطريق المحكمة مختلفة بعض الشيء، بغية تحقيق بعض التوازن، لأنّه لو كان بإمكان أي كان أن يحقق رغبته الشخصية في الوصول من عدمه، لما بلغ الكثير المحكمة، لسبب واحد فقط وهو أن يؤخروا مواعيد محاكماتهم، هل فهمت الآن؟

- ألم يقل ميموريل سابقا أنَّ الربَّ كفل لنا حرية الاختيار في هذا المكان؟ أرى أنَّ الكثير من الاختيارات والرغبات قد تم اجهاضها هنا.

- بكل بساطة لأنها اختيارات ورغبات منافية لما يجب أن يكون. ما معنى أنْ تفعل ما تشاء لحياة كاملة دون أن يقف أحدٌ في طريقك، ثم في اليوم الذي يأتي فيه حسابك سترغبُ في أن تؤخر أو حتى تنفذ بجلدك من المحاكمة؟ أترى معنى لهذا؟

- وجهة نظر سليمة، قُل لي إذن، ما السبيل كي نبلغ مرادنا بأسرع مما نحن عليه حاليا؟

- فكّر، بكل بساطة.

- لقد كنا نفعل ذلك باستمرار! لاشيء تغير حقا.

- غيّر طريقة التفكير إذن، لا أستطيع الإفصاح أكثر من هذا، أتمنى أن تكتشفوا الأمر سريعا لأننا نحن أيضا محكومون بسرعاتكم هاته.

ماذا يقصد بتغيير طريقة التفكير؟ هل علينا أن نفكر في مآلات حيواتنا السابقة؟ لكننا كنا نفعل ذلك مذ أن غادرنا تلك الساحة ولم يحدث أي تغيير فعلي. هل علينا أن نعيد الكرة مع ملاكٍ آخر؟ لربما هذا الذي كنا نتحدث معه قد استنفذ مخزونه المسموح له بالكلام. حاولنا أنا وناثانيال أن نستجدي معلومات

من ملائكتنا المدونة الأخرى ولكنهم آبوا ذلك، مفضلين محادثة بعضهم البعض بدلا عن التحدث إلينا. شعرنا ببعض الإهانة المبطنة لاسيما حين همَّ الملاك الذي منحنا تلك المعلومات القليلة بالابتسام ابتسامة ساخرة. ابتسامته تلك جعلتنا نحجم عن تكرار المحاولة مستقبلا.

وعوضا عن ذلك، حاولنا أنا وناثانيال تكرار الحديث بشكل مكثف، سردتُ له أحداث حياتي بالتفصيل، أخبرته عن عائلتي وعملي وعمري الذي قُدِّرَ لي أن أعيشه، اكتشفتُ أنَّ ناثانيال عاشَ خمس وثلاثين سنة فقط! إنه نفسُ عمرُ ابنتي ليلى! فكرتُ أثناء سماع هذا الرقم أن أُناديه بابني ولكني تراجعتُ عن ذلك خشية أن يتكرر شعوره بالذنب جراء تذكر سنه الصغير على فعلٍ جاد كالإنتحار. ربما إن نحن نظرنا إلى عاملِ السن كمعيار في تقديرنا إذا ما كان فعله ذاك فعلا متهورا لأجزمنا بذلك فورا. لكن من يدري ما الذي اختبره هذا الشاب حتى أقدم على ما أقدم عليه؟ ليس لأحدٍ الحق في الحكم عليه ما لم يختبر هو نفسه نفس الأحداث والظروف.

بعد أنْ كان الغرض من تكثيف الحديث بيننا أنا وناثانيال هو اختصار المسافة، وبُعيْدَ أن انتهت أغلب المواضيع المهمة والغير مهمة للنقاش والحوار، اكتشفنا في غفلتنا تلك أنَّ محاولتنا قد باءت بالفشل. لأننا في كل مرة كنا نفعل ذلك كان عدد المحيطين

بنا يُستَنزَفُ بسرعة، منهم من تقدم عنا وأغلبهم الباغون للتأخير ومنهم من سبقناهم وأولئك كانوا الملهوفين ببلوغ المحكمة بأسرع طريقة. لم يعجبنا الأمر على الإطلاق، كان علينا إيجاد حل ما راودتنا الكثير من الأفكار التي قمنا بتجريبها لكن دون طائل يُذكر ظلَّت نسبة بقائنا منعزلين تكبر شيئا فشيئ، ما أثار استياءً خفيا بداخلنا. كان خفيا مخافة أن يقوما ملاكيْنَا المكلفيْن بتدوين الأعمال السيئة باعتباره عملا سيئا، ومن ثم تدوينه في كتابينا ونحن الأغنياء عن ذاك النوع من الأعمال، كان علينا أن نبقى حذرين في تصرفاتنا حتى وإن لم نكن ندري إن كان ممكنا تدوين الأعمال صالحة كانت أم سيئة في الآخرة. كذلك، نحن الذين لم يمر على اجتيازنا لإختبار تقبل المصير سوى القليل، على الأقل نكون قد تعلمنا أنَّ كل شيء محكومٌ بقدر معين، علينا فقط أن نتقبل أننا سنصلُ إلى الحل في اللحظة المناسبة وهي اللحظة المقدرة لنا، فلنتحل بالصبر. وبينما نحن في خضم هذا النوع من التفكير الإيجابي حتى خطرت لي فكرة مفاجئة، كانت كالماء البارد لسقاية العطشان، ولعلها كانت الفكرة الأصوب.

- اسمع يا ناثان (لا أعلم لِم ناديته باختصار هكذا، لكنني لا أفعل هذا إلا حين أرتاح للشخص المخاطب). لقد خطرت لي فكرة ما، بما أنَّ أحدنا إذا ما أراد أن يبلغ وجهته عليه أن يفكِّر

في أمرٍ ما، فكرتُ ماذا لو أننا جرَّبنا أن نضاعف التفكير وذلك بالتحدث إلى أكبر عدد ممكن من الآخرين؟ أي يكونُ حديثا جماعيا كبيرا بدلا عن حديث الفرد مع نفسه؟ لربما سننجح في الوصول في وقتٍ أبكر، إن نحنُ نجحنا في مضاعفة كمية التفكير...

- فكرة عبقرية! لِمَ لم تَردْ علينا من قبل! لكن فقط إن وافق الآخرون على تجربتها، وأيضا إن أثبتت فعاليتها، فقد ننجح في جمعهم ولكن لن تتغير سرعاتنا، على كل حال فلنجرب، لنشرعْ في جمعهم الآن، لاشيء على المحك.

حسنا، الأمر لم يسرِ كما توقعنا، لكن أفضلُ بكثير مما توقعنا! لقد اقتنع الجميع بما حاولنا إقترحناه! وحين أقول الجميع فإنني أعني الجميع، لا أحد رفض مقترحنا لأنَّ جُلَّ المتأخرين كانوا حقا مثلنا، أولئك الذين كانوا يودون الوصول إلى المحاكمة بأي شكل من الأشكال. بما أنهم كانوا غير متخوفين مما سيؤول إليه مصيرهم، أغلبهم كانوا مؤمنين، البعضُ كان ملحدا ولكنه من النوع الملحد الواثق من صوابية أفعاله السابقة، لقد كنا على استعداد تام لفعل أي شيء قد يمكننا من ذلك.

فور أن تكتلَّ جمعُنَا شرعنا في عملية التعارف أولا أسماءٌ مختلفة في نواحي جغرافية متفرعة؛ لي يونغ، فرناندو، فيران، عمر جيسيكا، آبراهام، خان، آليكساندر، فاطمة، فرونسوا، دافيد ادريسا، نوح، يو تشين، جون، إيميلي، توفان، نغولو، نيلسون تاكيشي، جونيور، عصمان...إلخ، لم يحاول أيٌّ أحدٍ منا معرفة أصول الآخر، في الحقيقة لم يهتم أي أحد لأنَّ لا فائدة عملية كانت تُرجى من ذلك، حتى أنا وناثانيال لم نتعرف على بلدَيْ منشئنا نحن الإثنين.

تنوعت بعدها أحاديثنا المتبادلة، كلٌّ كان يحكي عما حدث له في حياته السابقة، بعضهم كان يقرأ لنا مباشرة من كتاب ذكرياته الخاصة التي استحضروها (ليس بالأمر العبقري مني، ولكن استحضار كتاب الذكريات هو حقيقة واقعة الآن!)، آخرون يروُون طريقة موتهم بحذافيرها، يصفون عملية مرورهم إلى البرزخ وكيفية اجتيازهم لاختبار تقبل المصير. تبين من خلال الكثير من القصص أنَّ توقيت وفياتنا كان متزامنا بشكل كبير جدا، البعض كان موته متقدما بعض الشيء لتأخره في الخروج من البرزخ أو اجتياز اختبار تقبل المصير، ولكن على العموم كان موتنا جميعا في لحظة زمنية واحدة، أحسسنا ببعض القرب والألفة والانتماء لحظة ادراكنا هذا.

اجتماعنا هذا أغرى العديد من الملائكة المدونة الخاصة بالجميع للانضمام إلى المحادثات، مواضيعهم كانت مختلفة بتاتا عن مواضيعنا. كانوا يتحدثون عن الأمور من وجهات نظرهم، من منظور غيبي لا مرئي، يسردون اللحظات التي أثَّرت فيهم في فترة التدوين، احساسهم بالشفقة علينا أثناء ارتكابنا لأعمال سيئة شعورهم بالفرح والغبطة أثناء تدوين الأعمال الخيرة التي كنا نعملها ولو على استحياء وقلة. كيف أنَّ الرب منح الملائكة المدونة للأعمال الخيرة السلطة على نظيراتها المدونة للأعمال السيئة، إذ كان يرجع قرار تدوين الأخيرة لعمل سيء من عدمه إلى ملاك تدوين الأعمال الخيرة، لعلَّ المقترف له يتوب عن ذنبه ويستغفر الإله عن ما فعله، فإنْ هو فعل استُبدِلَت سيئتهُ حسنةَ بسبب استغفاره، وإن لم يفعل فإنَّ ملاك تدوين الأعمال الحسنة يأمر نظيره بتدوينها كسيئة بسبب عدم شعوره بالذنب والندم والتراجع عما فعل.

- انظروا جميعا! إنهم أولئك الذين سبقونا نحو المحكمة! لقد لحقنا بركبهم! يا للعجب.

إذن لقد نجحت الفكرة، وأنا جد مندهش من مدى فعاليتها، كنت أظنُّ أننا لن نلحق بهم أبدا. إنَّ بعض القوانين لن تتغير بتغير العوالم، هي عبارة عن ثابت من ثوابت الخلق، مثل أنَّ

اجتماع جماعة ما حول فكرة والإيمان بها هو كفيل لهم بأن يحققوها بشكل أسرع، مثلما حدث للتو معنا. كما أنَّ كل شيء مبني على التوازن في النهاية، لقد انطلقنا سوية، وقد كانت سرعاتنا مختلفة، إذن ألم يكن الأجدر أن يكون توقيت وصولنا مختلفا، أليس كذلك؟ إلا أنَّ العبرة بالخواتيم، لقد كان وصولِ الجميع مثل انطلاقتهم، المحسنون والسيئون سوية، دون الإضرار بسنن الخلق.

ما هذا الذي نلوحه في الأفق؟ قلعة فخمة عالية على شاكلة المباني الإغريقية القديمة. لونٌ أبيض، أساسها تماثيل لملائكة صغار بأجنحة لطيفة يحملون موازين بلون الرماد البراق، ربما كترحيب بالقادمين، من يدري. وكلمتان منحوتتان على مقدمتها شكلهما فني مزخرف: "محكمة الآخرة". تبدو القلعة من منظرها الخارجي وكأنها مسرح أكثر من كونها محكمة! ترى ما الذي ينتظرنا هنالك؟ أرى أننا كلما زاد اقترابنا من مدخلها ازداد شعورنا برهبتها وهيبتها، وازدادت أكثر مشاعر الخوف في دواخلنا، خصوصا لدى أولئك الذين رفضوا مغادرة الساحة في بادئ الأمر. وناثانيال المسكين، أتمنى حقا أن يبليَ بلاءً حسنًا، إنه شخص طيب.

لقد وصلنا أخيرا، بعد أن اتفقت الجماعة على الدخول متماسكين كدفعة واحدة، في فعل ينم على التضامن والتلاحم

فيما بيننا، ظهرت لنا عبارة على أعلى الباب تُسفر عن إمكانية "دخول لشخص واحد فقط"، هذا معناه أننا سنفترق!

- ماذا يعني هذا يا مصطفى؟ هل سننفصل؟!

- ناثان، لا تقلق، إنه فراق مؤقت، كن هادئا، اتفقنا؟ هل تذكر ما قلته لك سابقا؟ فلتكن ثقتك بالإله كبيرة، نحن سنلتقي لاحقا، ربما هنا فالداخل أو ربما هناك في الجنة! فقط آمِنْ بذلك! اتفقنا؟

- لا أريد الإبتعاد عنك!

- لا بأس يا ناثا، ثق بأننا سنجتمعُ مجددا.

لا أدري لِمَ قلتُ ما قلت ولكن راودني إحساسٌ غيبي باطني أننا سنفعل مرة أخرى، أنا لم أنبس بما تفوهت من فراغ. بدأ تدافع الأشخاص الراغبين في الدخول أولا يزداد، ما جعل افتراقنا أنا وناثان لحظيا، لم يكد يودع أحدنا الآخر حتى وجدت نفسي أمام مقابض الباب الكروية، والذي خلفي يحثني على الدخول بسرعة كي تَسنح له الفرصة كذلك، لِمَ توجد مقابض ونحن لا نملك أيادٍ؟ هذا سؤال جوابه يعلمه الرب وحده، علي الآن دفع الباب فقط قبل أن يتمَّ دفعي أنا نفسي من الوراء.

سأفتقدك ناثان، أتمنى أن لا يطول الأمر كثيرا!

الفصل الرابع

"يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ
سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا"
الآية 30 – سورة آل عمران

ما هذا؟ أين الجميع؟ أين هم الذين دخلوا قبلي؟ هل كانت تلك بوابةً أخرى لأبعاد مختلفة؟ لا يوجد أي أحدٍ هنا. هل سأكون وحيدا من جديد؟ يا للأسف، لقد اعتدت حقا على وجود رفقة آه. حسنا، أنا لست وحيدا بالمطلق، لقد أتيا معي، هذان الملاكان. المكان مظلِمٌ بعض الشيء، أنا الآن في ممر ضيق صغير، لكن إلى أين سيفضي بي؟ لا أعلم، لنرى سوية.

وااااااو! رباه ما أعظمك! يا لروعة تفاصيلها! هذه القاعة أشبه ما تكون بقاعة الأوبيرا الخاصة بقصر باريس المسمى غارنييه! لقد كنت محقا، هي لم تكن شبيهة بالمحكمة، بل بمسرح فني! إنَّ أكثر الذي شدني فيها هو هذا الميزان الضخم القابع وسط القاعة، عليك أن ترفع نظرك بالكامل حتى تُبصِرَ عليَّتَهُ. وهاته الطوابق الجانبية ذات الستائر الذهبية، ذاك السقف القرمزي المزخرف بآيات قرآنية فضية لماعة، المصحوبةً باقتباسات كلها تدور حول العدل. إنَّ اللونان الذهبي والقرمزي متكرران بكثرة مقارنة ببقية الألوان الأخرى.

- " يوم العدل على الظالم أشدُّ من الجور على المظلوم"
- "لكل ذي حقٍّ حقه"
- "ولا تحسبنَّ الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار"

- "يوم القيامة يفصل بينكم"
- "فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ومن يعمل مثقال ذرة شرٍّ يره"
- "بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"
- "إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا"
- "لتؤدُّنَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة"

إن كل هاته العبارات ما بين أقوالٍ وأيات هي إسلامية بحتة! هل سيتم حسابي بناءً على ديانتي السابقة هنالك؟ ماذا عن الآخرين؟ المعتنقين لباقي الأديان؟ هل سيجدون في قاعاتهم عبارات مقتبسة من أديانهم أيضا؟ أم سيجدون مثلما وجدتُ أنا؟ مثلا آليكساندر، قد صرَّح لنا من قبل أنه كان مسيحيا كاثوليكيا، هل سيجد آيات من الإنجيل؟ أنا متأكد أنَّ في الإنجيل بعضا منها يتحدث عن العدالة أيضا، وهو يعلمها. ماذا عن ناثانيال؟ هو لم يؤمن بأي شيء، كان لا دينيا بحت، أيُّ عبارات سيجدها في محكمته؟ أظن أنَّ هاته العبارات هي بمثابة حجج علينا، لقد كنا نعلمها ونعيها، وربما لم نعمل بها رغم ذلك، وقد جاء يوم ووقت العمل بها كما وُعدْنا من قبل.

- يُرجى من مصطفى معيوب التقدم إلى الأمام، التحلي بالهدوء والوقوف في بقعة النور أمام الميزان.

من هذا؟ إنه نفس الصوت الذي سمعناه في الساحة التي أعقبت قاعة اختبار تقبل المصير، أ يمكن أن يكون صوت الله؟ أين هو على كل حال؟ ألا يُجدَرُ به أن يكونَ هو القاضي؟ ليس من الحكمة أنْ أفكر في هكذا أمور في موقفي هذا، عليَّ الإمتثال إلى أمر الصوت وفقط. إنني أشعر بخوفٍ لم أظنَّ أنني سأشعر به هكذا، إنَّ مصيري سيستبين!

- لا عليك، أنت ستبلي بلاءً حسنا، تقدم. قال ملاك تدوين الأعمال الحسنة في محاولة لطمأنتي.

- أرجو ذلك حقا.

فعلتُ المطلوب مني وربما أكثر، إذ بمجرد أنني وقفت أمام الميزان حتى استحضرتُ كتاب الذكريات الخاص بي، ظنًّا أنَّ أعمالي ستُستَخْلَصُ منه ولكن الصوت أمرني بإخفائه مجددا، طالبًا من ملاكَي تدوين الأعمال إخراج كتابيهما والوقوف أمام كفتي الميزان، ملاك تدوين الأعمال الحسنة بكتاب أبيض بلون النور المشع أمام كفة الأعمال الحسنة، وملاك تدوين الأعمال السيئة بكتاب أسودٍ بلون الظلام الداكن أمام كفة الأعمال السيئة.

وما إن فعلا حتى بدأت الأعمال من كل كتابٍ تنسلخ وتتراقص في مسارات منحنية متجهة إلى مكانها المخصص لها، إلى كفتي الميزان. شعرتُ بالفزع يدبُّ في داخلي حين رأيتُ تلك الشاشة الضخمة ذات الأرقام المتزايدة فوق كل كفة، لاسيما حين كان يرتفع فيها رقم الأعمال السيئة. كان اهتمامي منصبا على ذلك الرقم أكثر منه على رقم الأعمال الحسنة، كان يروعني حجم الأعمال السيئة التي ارتكبتُها! ما الذي يحدث؟! متى فعلتُ كل هذا! إنَّ الأرقام متقاربة للغاية! إلهي!! لا أصدقُ أنَّ الأعمال السيئة بلغت كل هذا الحد. بعيدا عن مصيري، أريد أن أعرف متى فعلتُ كل هذا! هل كنتُ مستصغرا الأمر فوق اللزوم؟ وأنا الذي كنتُ أُطمئِنُ ناثان معتقدا أنني قد نجوتُ بُعيدَ معرفةِ درجة انسانيتي. أنا نفسي أحتاج إلى الطمأنة حالا! ألم تكن كافية؟ إنَّ أربعة وسبعين من مئة لنسبة كبيرة! هل رياضياتُ الآخرة ليست كمثيلة كوكب الأرض تلك؟ مثل الفيزياء؟ ما مآلي؟ هل سأخلد في الجحيم؟! هل كنتُ شخصا سيئا إلى هاته الدرجة؟ أشعر بالرعب يتدفق بريتم عالٍ؟ آكاد أُجنُّ الآن! أنقذني يا إلهي!

انتظر لحظة، إنَّ فارق الأرقام بدأ يكبر ويتباعد. تلك الشاشة، إنَّ أرقام جهةٍ ما قد بدأت تستقر، أما تلك فهي مستمرة في الإزدياد. لقد بدأت تختلط عليَّ الأمور، هل الفارق سلبي أم ايجابي؟ لحظة فقط كي أركزّ، إنني لم أعد قادرا على إجراء عملية

حسابية بسيطة بسبب الرعب الذي ينهشُ أعصابي، إنَّ الأرقام التي تزداد هي أرقام الكفة اليمنى، ألا يعني هذا أنها أعمال صالحة؟؟ أليس كذلك؟ إنَّ الأعمال السيئة الخارجة من الكتاب قد توقفت عن الإنسلاخ منه والتراقص في ذاك المسار المنحني لقد توقفت أرقامها هي أيضا! إن أرقام الكفة اليسرى هي التي توقفت عن الإزدياد!! يا إلهي! إنَّ الفارق إيجابي! إنني أبتعد عن الجحيم! لم أفكر للحظة فيما كنتُ سأدخل الجنة بقدر اصراري فقط على أن أبتعد عن الجحيم، أنا لا يهمني أيُّ جنة سأدخل، أنا لا يهمني أن أنعم، أنا لا أريد أن أتعذب فقط!

إنَّ أرقام شاشة الكفة اليمنى مستمرة بالإرتفاع. أ كان ذاك التقارب في الفارق منذ قليل يمثل البداية فقط؟ صحيح، طبيعي أن يكون هنالك تقارب في بداية الحساب إلى أن يحدث توقف في إحدى الكفتين. لكن أين هو العقل الذي سيخبرك بهذا حين ترى مجرد أرقامٍ عملها الوحيد هو أن تتغير باستمرار. أرقامٌ ستحدد مصيرك إلى الأبد، أنت تودُّ فقط لو تتوقف أرقام كفة معينة وليسَ غيرها ولن تنتبه إلى أي شيء آخر.

لقد انتبهتُ إلى أنني قد أغفلتُ شيئا مهما، إنَّ الحسنة تزنُ بعَشرِ أمثالها، أما السيئة فبمثلها، خصوصا لو كانت تلك السيئة بينك وبين نفسك، ولم تكن بينك وبين الناس. ما يعني أنَّ فعل الخير أكثر وأثمن وزنا من فعل الشر، لأن الأخير سهلٌ هو عمله

وإدراكه، أما فعل الخير فهو الأمر الصعب حقا، بما أنَّ المغريات والملهيات عنه عديدة وسهلة المنال هي الشهوات، وفِعْلُ الأمر الصواب بوجودها يعتبرُ مقاومة لها قبل أن يكون خيرا في حد ذاته، لهذا لا تستوي قيمة الخير مع قيمة الشر أبدا، الخير دوما أثمنُ وزنا.

بعد مدة طويلة نسبيا، توقفت الأرقام كلها على اختلافها واستقرت على فارق في الأعمال اعتبرتُه مطمئنا. شعرتُ بارتياح طفيف وسكينة مفاجئة تغمرني كونَ الفارق كان إيجابيا، كأنَّ ثقلا عظيما انزاح من فوق صدري. إنني الآن متحمس جدا لمعرفة ما الذي سيحصل.

- مصطفى معيوب، إنّ رصيدك من الأعمال الصالحة يكفيك إلى حد الآن للظفر بمكان في النعيم، لو كنتَ أكثرَ إصرارا كان بإمكانك أن تفوز بمقعد في جنة عدن أو حتى الفردوس، لكن النعيم لا بأس به.

- إلى حد الآن؟! ما الذي تعنيه ب "إلى حد الآن"؟

- إنَّ هذا ليس الرصيد النهائي، هو مجرد رصيد أولي يُمثلُ الفارق بين الأعمال المدونة في حياتك بينك وبين نفسك والله حصرا. سأشرحُ لك، الطاعة والعبادة والتسليم بوجود الإله هي أعمال صالحة قد دوَّنها ملاك الأعمال الصالحة، والمعصية

والإعراض عن العبادة وتسليم النفس إلى فعل السوء هي أعمال سيئة قد دونها ملاك الأعمال السيئة. أمَّا عن القضايا التي كانت بينك وبين الناس، أن تظلمَ أحدا أو تكونَ عُرضةً للظلم، فقد كانت تُمنَحُ لكم فرصة لتسوية الأمور وديا وإن لم تفعلوا فيتمُّ رفعها مباشرة، كي يقوم الله نفسه بالفصل بينكما في هاته المحكمة.

- الآن قد علمتُ ما بيني وما بين الله، كيف سأعلم ما بيني وما بين الناس؟

- لحسن الحظ أنَّك حاليا لا تملكُ أي نزاعات أو قضايا مع أشخاص سبق لهم وأن كانوا هنا، لهذا قلتُ "إلى حد الآن"، لن يتمَّ استدعاؤك للوقوف أمام أي أحد، لكن إن كان لك أي قضية مع من سيلتحق لاحقا من أحياء عالمكم فستمتثل لدعواه كي يقتص من حسناتك أو العكس.

-وهل سأبقى هنا إلى أن يموتَ جميع من عرفتهم للوقوف وجها لوجه؟!

-لقد أخبرتك منذ قليل أنَّ الرصيد الحالي يكفل لك مؤقتا المكوث بالجنة. إلى حين أن يكتمل كلية بما بينك وبين من يزالون في ذلك العالم، حتى يصبح رصيدا نهائيا ويصبح مكوثك إمَّا خلودا أبديا، أو لربما تخرج منها كي تدخل الجحيم. في الحقيقة عليك أن

تحمد الله على أنك تملك رصيدا إيجابيا مؤقتا كهذا، بعضهم لا يفعل فيكون مكوثه المؤقت في النار كونَ الفارق سلبيا، والأكثر من هذا أن يكون لديهم عديد القضايا التي لا تزال بانتظارهم، ما يعني أنَّ عذاباتهم ستستمر وقد تشتد أكثر مع كل قضية يتم فيها الاقتصاص منهم.

-أنا شاكر لله كثيرا ولا أنوي الإعتراض مطلقا على حُكمِهِ. لكن رجاءً أود الدخول إلى النعيم سريعا حتى أمكُثَ به لأطول وقت ممكن، قبل أن يتم استدعائي من أيِّ طرفٍ كان، هل هذا متاح فورا، أم عليَّ الانتظار؟

-أجل، لقد عَمِلْتَ جاهدا كي تفوز بما تستحق، بالإضافة إلى رحمة الله وغفرانه لك قد كان لك ما أردت، هنيئا مجددا بمقعدك في الجنة، يمكنك المغادرة، لا تنسى أن تأخذ تذكرتك معك، بدونها لن تستطيع الذهاب إلى هنالك. أما عنكما أيها الملاكين، فقد انتهت مهمتكما الحالية، يمكنكما مسحُ كل شيء عن مصطفى معيوب، والبدء في مهمة جديدة مع مخلوق آخر شكرا على خدماتكما.

-سؤال أخير، كيف تبدو؟

-ماهي؟

-الجنة.

-ستراها بنفسك.

-أما عنكما، فشكرا على كل شيء، قد أكون أرهقتكما كثيرا بالتدوين، آسفٌ بخصوص ذلك.

-لا بأس يا مصطفى، سرنا التعامل معك، كما أننا لا نُصابُ بالإعياء مثلكم، لذا لم يكن هنالك أيُّ إرهاق في الأمر. هنيئا لك باجتياز الحساب الأولي! علينا الذهاب الآن، وداعا.

هل كان لزاما عليهما إضافة كلمة "الأولي" تلك؟ كأنهما يقومان بإغاظتي عن عمد، يا له من وداع.

أعلمُ أنَّ لا جسد لي، ونفس الشيء ينطبق على الهرمونات، ولكنَّ شعوري أثناء مغادرتي للباب الخلفي للمحكمة كان يشبه أضعاف شعور فورة الأدرينالين التي كنت أختبرها حين يقوم فريقي المفضل في كرة القدم بتسجيل هدف الفوز في الدقائق الأخيرة! ومِنْ شدة الشعور ذاك حتى نسيت أن أسأل صاحب الصوت عن مكان استخراج التذكرة، أو الاستفسار عن هويته. من يكون يا ترى؟ إنه حتما ليس صوت الرب لأنَّ صاحب الصوت نفسهُ كان يتحدث عنه بضمير الغائب. آه، على ذكر الرب متى سيكون بإمكاني رؤيته؟ هل أعود إلى الداخل كي أسأل صاحب الصوت؟ لا لا لا، أنا لن أعود إلى هنالك إلا حين يتم استدعائي مرة أخرى، الآن عليَّ الذهاب، فإنَّ الكثير ينتظرني في الجنة كي

أعيشه! آه التذكرة، لابد أن تكون في ذلك الركن. عفوا، في ذاك الشباك، بما أنه مكتوب على مقدمته: "هنا تُستَخْرَجُ تذكرة الجنة".

-السلام عليك أيها الملاك مانح التذاكر، أريد فقط أن آخذ تذكرتي لدخول الجنة، أيضا أود أن أعرف أين تتواجد تحديدا؟ لأني لا أعلم الطريق إليها، كما أنني لا أرى غيرك هنا، والشباك أيضا.

-وعليك السلام، صحيح أنني مانح تذاكر، ولكنَّ اسمي هو تيسيرايل، ويبدو أنك متلهفٌ للغاية ومتسرع بعض الشيء، هلا تفضلت بإعطائي اسمك الكامل؟

-مصطفى معيوب، لقد خرجتُ لتوي من المحكمة وقد قيل لي أن آخذ التذكرة كي يتسنى لي الدخول.

-تقصد الركوب وليس الدخول. إذن، مصطفى معيوب؟ آهاه، إلى النعيم؟ جيد. تفضل، هاهي تذكرتك، عليك الولوج من الباب الثالث. كما أنَّ الجنة لا تتواجد هنا، هي في مكان بعيد عن المحكمة.

-الباب الثالث؟ وهل للجنة أبواب عديدة؟ ماذا تقصدُ بالركوب؟ (شرعتُ بقراءة المكتوب على التذكرة "تذكرة الجنة لشخص واحد") هل سأستقل قطارا أم ماذا؟ (قلتُها بنبرة ساخرة).

-بالضبط تماما، ستستقل القطار إلى الجنة. وأجل، لها أبواب متفرقة، أو فلنقل مستويات. تذكرتك التي فزت بها تخول لك أن تنتمي للمستوى الثالث، أي النعيم. أما عن الباب الثالث، فأنا كنتُ أقصد الباب الثالث للقطار، وليس للجنة.

-للقطار؟! كيف ذلك؟ هل لربما له نقاط دخول محددة على حسب نوع تذكرتك؟ قد يكون إذن الباب الأول والثاني لمالكي تذاكر الفردوس وعدن حصرا، فرضا أنَّهما الجنتان ذوي المستوى الأعلى من مستوى النعيم؟ أعني بما أنهم صاحبي تذاكر الدرجة الأولى، أما تذكرتي فيجدر بها أن تكون درجة اقتصادية، أليس كذلك؟ (لا أدري ما الذي يحدث مع سخريتي المستمرة هاته! كذلك لا أعلم من أين لي باستمدادها بهذا الشكل).

-بالضبط، أنت ستدخل النعيم فحسب، ليس لك إذن بالولوج للجنات الأخرى.

-الآن فهمت، لن أستطيع الدخول من الباب الثاني أو الأول للقطار، فقط الثالث، لقد فهمت. حسنا، إنني مسرور أنني لن أذهبَ إلى "النعيم" سيرا، ولكن أينَ هي السكة؟! لا أرى واحدة، وأيضا لا توجد لا محطة انتظار ولا أي قطار.

-يبدو من سلوكك هذا أنك كنتَ فعلا متسرعا بشكل مبالغ فيه في حياتك السابقة، عمَّرْتَ أربعَ وسبعين سنة ولا تزال بهذا

القدر من التسرع؟ على كل حال، يمكنك الانتظار، سيمرُّ عليك القطار في أي لحظة، إقامةً هنيئة.

أنا حتما لا يعجبني سلوك هاته الملائكة، إنَّ جميع من التقيتهم يملكون حسًّا ساخرا وناقدا! غريبٌ أمرهم! لا بأس، أنا لا لن أدعَ أحدا يعكر مزاجي لأنني سعيد بشدة، رغم فوزي بمقعدٍ في النعيم فقط، لكنني سعيد. إنَّ انتظاري لن يدوم طويلا، لأنَّ القطار هاهو آتٍ!

يا للروعة، يا لتركيبته الغريبة، يليق به حقا أن تكون الجنة هي وجهته. إنَّ أشد ما يسترعي انتباهك إليه هو نوافذه الكبيرة او فلنقل كليته الزجاجية. لأنه ليس القطار البخاري المعدني المعتاد إنما يشبه قطارا فائق السرعة زجاجيا بالكامل! كما أظنني كنتُ مصيبا بشكل عرضي، لأنَّ هذا القطار لا يحتاج إلى سكة، هو يستند إلى الفراغ حرفيا. سيُجَّنُ جنوني من فيزياء هذه الآخرة!

استغرق توقف القطار بعض الوقت نظرا إلى طوله الممتد مقارنة بقطارات عالمنا السابق. مرَّ بيَ الباب الأول ثم الثاني، إلى أن توقف أمامي ريثما أقبلَ الباب الثالث. آهاه، إنه هو، باب "النعيم". لكن لِمَ تُراهُ لا ينفتح؟ آه، عليَّ أن أضع التذكرة في هاته الفتحة المستطيلة. حسنا، هاهي التذكرة أيها الباب العصي، حريٌّ بكِ أن تفتحَ الآن، هيا افتح.

واو، ملأ عظيم! جميع من التقيتهم في طريق المحكمة هنا باستثناء القليل! هل نجحوا في أخذ تذاكرهم إلى جنة أخرى؟ إلى عدن؟ أم إلى الفردوس؟ أو لربما لم ينجحوا أصلا! هل سيلجون إلى الجحيم؟ إنَّ الحاضرين يُحَيُّونني، مرحبا بكم! أهلا! أحسنتم سعيد برؤياكم هنا. لحظة، أنا لا أرى ناثانيال، أينَ هو؟ أين ناثان؟ يا إلهي، هل يُعقَلُ أنه لم ينجح؟! إنهم محقون حين جزموا أنني متسرع جدا! لربما هو في مقعد آخر بعيد عن هنا، من يدري؟ ربما هو في الدرجة الأولى أو الثانية؟ سأبحث عنه في إحداهما. آه لقد نسيت، لا يحق لي الولوج إليهما رغم وجود هاته البوابة بين هاته الدرجة والأخريات. حسنا، ما الذي سأفعله؟ لا يزال بإمكاني البحث في المقاعد الأخيرة لدرجة النعيم هاته. القطار طويل بعض الشيء، لكنني لن أتوانى في البحث عنه، أنا لن أتسرَّع في الحكم، رغم أنني قد فعلتُ آنفًا.

لم أكلف نفسي عناء إيجاد مقعد شاغر، إذ باشرتُ مباشرة محاولة السير وسط الممر متجاهلا صوتا لم أركز جيدا فيما كان يقوله، أعلم أنه نابع من مقصورة القطار ولكنني لن أشغل بالي به. عليَّ أن أجد ناثان، أين ذاك الشاب؟ إنه شخص طيب يستحق مكانا هنا! شعرتُ بالحيرة تنمو بداخلي وأنا أتمعن في هالات الراكبين. هو ليس في هاته المقاعد الأمامية، عليَّ أن أجده سريعا، عليَّ الذهاب إلى مؤخرة الدرجة. على أنني ما إن أخذتُ

خطوتي الأولى تجاهها حتى كِدْتُ أن أهوى على الأرضية، لأنَّ القطار لغرابته انطلق في "الإقلاع" إن صح التعبير، إقلاعٌ كإقلاع طائرة بوينغ، لم يكن مسارهُ مستويا كقطارات ذاك العالم، لقد بدأ يطير بالحرف الواحد!

- مرحبا بك أيها الراكب الجديد، نحن طاقم قطار الجنة، نكرر ونرجو منك أنْ تَجلسَ على مقعدك وتضع حزام الأمان، وإلا فإنَّا غيرُ مسؤولين عن أي تمزقات روحية قد تحدث لك أثناء الرحلة.

تمزقات روحية؟ آه يا لها من ذكرى سيئة، أنا لا أحبذها على الإطلاق! ما يثير أربكني أكثر من ذكر تلك التمزقات هو أنَّ الجميع مستمتع بكونه يُطير إلا أنا، لأنني أرى قوانيننا درَّستُها طيلة حياتي تتهاوى أمام ناظري! أنا أعاني من إشكالية الآن هم لن يستطيعوا فهمها أبدا، تماما مثل طبيب مارس الطب طيلة حياته لِيُفاجأ هنا بعدم وجود أجساد كي يحلِّلَ مؤشراتها الحيوية من النظرة الأولى كما يحلو لأي طبيب أن يفعل. لكن من يدري، ربما استمتاعُ الجميع هذا قد أعقبَ دهشة أولية قد مرَّ بها كل واحد خطى بداخل هذا القطار. ريثما مضت بعضُ الألفة على الأمر حتى تحول من دهشة استغراب إلى استمتاعٍ آني، لأنَّ الألفة تؤدي إلى الإعتياد، والأخير يُردي الدهشة في مقتل.

على الأرجح أنَّ بحثي عن ناثانيال سيتأجلُ إلى حين الوصول إلى النعيم، وإلا سأرتطم بشيء ما قد ينجَّرُ عنه تمزقٌّ روحي كما حدث لي في البرزخ، وطبعا لن يكون بمقدور أيِّ طبيبٍ من ذاك العالم أن يعالج تمزقات روحية! هذا إن فرضنا تواجد طبيب على مستوى هذا القطار. لكن ماذا لو أن ناثان قد فاز بتذكرة للمستوى الرابع؟ أو المستوى الخامس؟ أصلا كم توجد من مستويات للجنة؟ هل سأستطيع معرفة ذلك إن أنا نجحت في معرفة عدد أبواب هذا القطار؟ لكنه طويلٌ للغاية، قد يستغرق الأمر كثيرا كي أُدركَ فقط عدد أبوابه بالضبط. فرضا أنَّ ثانان قد فاز بتذكرة من مستوى متدنٍّ، هل يكون قد نزل في محطته مسبقا؟ أعني، هل بلغ رواد المستوى الرابع جنتهم وبذلك بقي فقط بلوغ رواد المستويات الثلاث لوجهاتهم؟ إذن لن تكون هنالك أي طريقة عملية لمعرفة مصير ناثان فعلا. أنا حقا أتمنى أن يكون قد فاز بتذكرة نعيم مثلما فعلتُ أنا وفعلَ أغلبية مرافقينا في طريق المحكمة، على الأقل حتى أتفادى البحث المطول عنه.

استمرينا في الطيران والإرتفاع لمدة طويلة، لقد غادرنا منذ زمنٍ معتبر، حاولتُ فيه رؤية ما يحيط بنا من النافذة لإشغال خاطري وتمضية الوقت ولكن لاشيء نجح في ذلك، لأن "لا شيء" هنالك كي تنظر إليه. مجرد فراغ بألوان كثيرة مختلطة في بعضها البعض

وكأنَّ طفلا صغيرا أسْقَطَ عبوات رسمٍ سائلة فانسكبت وتمازجت ألوانها ونتج عن ذلك هذا الذي أراه الآن.

الجميع مستمتع هنا إلا أنا، لا أدري لمَ تحديدا، هل لأني لا أعلم شيئا عن ناثانيال بعد؟ أم لأنَّ الطيران لم يستهوِنِ يوما؟ أم هو مجرد رد فعل باطني كون مكوثي في الجنة هو مكوثٌ مؤقت إلى حين حدوث استدعاء لي؟ لا مزاجَ لي للتحدث مع أي أحد أو التفكير، لأنَّ الأخير يُفترَضُ به أن يغير سرعتي أنا شخصيا، لكنه لن يغير من سرعة القطار شيئا، آاااااه، الفيزياء مجددا!

-يُرجى من الركاب إبقاء أحزمة الأمان مربوطة لأننا أوشكنا على الهبوط، نتمنى أن تكونوا قد حُظيتُم برحلة ممتعة، كما نتمنى لكم إقامة طيبة خالدة في الجنة، عسى ألا نراكم مجددا في قطارنا هذا. (نجحت هاته النكتة في إضحاكنا جميعا، وإن كانت سوداوية في جانبها الآخر).

إنَّ عبارات طاقم القطار هذا تشبه كثيرا تلك العبارات التي كان يقولها قائد الطائرة في العالم السابق. لقد انتبهتُ إلى أنَّ جُلَّ الأذكار والأفكار والعبارات هنا وهنالك تتشابه، وكأنَّ أحدها مستوحًى من الآخر! هل يا ترى كان استخدامنا لكثير منها في الدنيا هو نتيجة تلك الإيحاءات الإلهية الموجهة لنا من هذا العالم

الأخروي؟ "الآخرة"؟ أو لربما أننا قد تداولناها من قبل لأننا مررنا بهذا المكان قبل أن نحيى فوق الأرض؟ من يدري، ربما.

فور أن وصل القطار إلى محطتنا نحن رواد المستوى الثالث إلى النعيم، وحطَّ في مكانه، ولحسن الحظ كان هبوطا سليما؛ لم يقتصر فعلُ الإنفتاح على بابه فقط هاته المرة، إنما طالَ جانب الدرجة الثالثة بأكمله المطل على المحطة بُغية أن لا يحدثَ أيُّ ازدحام أثناء الخروج منه. هل هذا المسألة تحدث في كل مرة يصل فيها القطار إلى إحدى محطاته؟ أم أنها مخصوصة برواد النعيم حصرا، افتراضا أنَّ أغلبية الفائزين بتذاكر الجنة هم فائزون بتذاكر النعيم و بذلك فأمر انفتاح الجانب كاملا هو خاص بالمستوى الثالث فحسب، لكثرة مرتاديه؟ لا ندري.

في نفس الوقت الذي انفتح فيه الجانب، حدث صوتٌ جوهريٌّ لم يدرِ أي أحدٍ فينا مصدره. ثم بُعيدَ أن نزل جميع مرتادي النعيم عن القطار حتى استأنف الأخير رحلته من جديد لربما إلى محطة المستوى الثاني. أقول ربما، لأنني أنا نفسي لا أعلم.

وجدنا ملائكة كثر ينتظروننا، كل واحد فيهم يحمل لافتة صغيرة تحمل إسما من أسامينا (إنه نفسُ الذي كان يحدث في مطارات الدنيا، عجيب!) أين هو اسمي؟ آه، إنَّ هنالك أسماء كثيرة؛ كريستيان، أحمد، جورج، يونغ مين، أوف، ناثانيال

هاااا، ماذا؟! ناثانيال؟! يا إلهي، إنَّ اسم ناثانيال هنا! هل يا تراه ناثان الذي أعرفه أم هو ناثانٌ آخر؟! سأنتظر هنا أمام هاته اللافتة ريثما يُقبلُ هذا الناثان، لعله يكون ناثاننا نحن.

مضى بعض الوقت ولم يظهر أي أثر لأي شخص أمام اللافتة الكل يجري نحو لافتته، بابتسامة عريضة لرؤية إسمه مكتوب. نفسُ الشعور السعيد الذي يكتنفُ الإنسان حين يقابل صاحبا كانا قد افترقا لوقت طويل، وبمجرد التقائهما لمرة أخرى وجدهُ لا يزال يحفظ إسمه دون أي تردد في تذكُّره. شعورُ أنك قد أفلحتَ في مقاومة اختبار الزمن والنسيان. وعلى النقيض تماما ذاك الشعور المحزن حين تفشل في الأمر، حين يبدأ الآخر في التلعثم وإدعاء أنه لا يزال يذكرك على أكمل وجه، وتنتهي المسألة بمأساةِ أن يُلقي على مسمعك بإسمٍ غريب عن الخاص بك في محاولة أخيرة يائسة منه، لكن هيهات، أنت فقط من لا تزال باقيا على كل جزء مما جمعكما سابقا في صداقتكما، فضلا عن لعبة الأسماء.

من فرطِ تركيزي على أمر ناثان حتى تناسيتُ ما يخصني أنا لم أُلقِ أدنى بالٍ للافتتي، كان انتباهي منصبا بأكمله على إيجاد صاحب هاته اللافتة. مضى وقت طويل، وبدأ مخزون صبري ينفذ، لم أعدْ أطيق الإنتظار، شرعتُ في الصراخ باسم ناثان في الأرجاء لعلَّ أحدا يقبلُ عليَّ، لكن ليس أيُّ ناثان سأقبلُ بوروده

إنما هالة محددة بأوصافٍ معينة، وإنْ جاء أحدٌ غيره لاعترضتُ على الأمر بل وشككتُ في إدعائه إسمًا غير اسمه، إنه لصٌّ أسماء يحاول دخول الجنة بأي طريقة!

انتظر، ما هذا؟ إنه شعورُ هالةٍ مألوف الذي أحس به لتوي، إنني أعرفها جيدا، هاته الهالة. إنها تقترب بسرعة جنونية نحوي، وشدتها تزداد مع كل خطوة تجاهي، إنه ناثان الذي يجري! لقد احتضنني فورَ أن لمحني، غافلا عن رؤية إسمه.

-ناثاااااا، يا ناااااثاااااااا، لقد نجحتَ يا ناثا! هل تصدق؟!

-مصطفى! لقد كنت أبحث عنك منذ أن صعدتُ القطار، لقد نجحتُ يا مصطفى! لا أصدق ذلك! أنا سعيد جدا برؤيتك مجددا!

-ألمْ أخبرك أنك ستجتازُ الأمر!

-لقد غفر الرب لي كل ما كان بيني وبينه. لقد قال الصوت أنه فعل ذلك لأنَّ عدم إيماني بوجوده لم يكن عن مكابرة أو عناد، إنما عن عدم إتضاح رؤية حقيقي. قال أنني رُغم نهايتي المأساوية إلا أنَّ جوهري كان مؤمنا. على أنني تعرضتُ لعتاب على قرار إنهاء حياتي بيدي، لم يكنُ يُجدرُ بي فعل ذلك.

-لقد أخبرتك أنَّ الإله يعلم سرائرنا أكثر مما نعلمه نحن عن أنفسنا.

-نعم، أنا لم أكتشف هذا من قبل بنفسي، لكنني كنت شخصا جيدا، لم أكن أكذب ولم أسرق ولم أخدَع أحدا يوما، ورُغم قلة صلتي بالرب إلا أنه غفر لي بسبب سلامة قلبي. لقد قال شيئا عن فلاحي في الحفاظ على الطفل الذي كنتهُ بداخلي، على أنني لم أفهم المغزى منه.

-صحيح، حزرتُ دوما أنَّ الحيلة حول الحياة كانت تكمنُ في الإبقاء على جزئنا الطفولي بدواخلنا؛ أتعرف؟ كان علينا ألا نكبر.

-ألا نكبر؟ كيف هذا؟ أتعني أنه كان يجب أن نبقى أطفالا؟

-يمكنك قول ذلك. كان علينا أن ننضج، لكن دون أن نكبر. كل ما فعله الكبار هو أنهم تخلصوا من براءتهم وسذاجتهم وفضولهم ودهشتهم وحبهم للحياة، ظنا منهم بأنها أمور طفولية. نعم، إنها أمور طفولية، إنَّ الأطفال بطبعهم لا يملون ولا يكتئبون، ويحبون ولا يكرهون، يشاركونك أغلى ما يملكون دون أي ترقب لمقابل منك. هم سعداء بالفطرة وقنوعون وشغوفون بالإكتشافات والمعرفة ورؤية العالم بمنظور آخر عن منظور "البالغين". كان يجدرُ بهاته الأمور "الطفولية" أن تكون الأساس لرحلة تحول البشري إلى إنسان، إلى "النضج"، لا أن يتم التخلص منها كخطوته الأولى نحو لك. زعمَ الكبار أنهم قد نضجوا، هم كبروا نعم، ولكنهم لم ينضجوا. هل ترى أيَّ سبيل للنضج هنا

حين يقتصر فقط على الخبث والجشع والكراهية وفقدان الحب للحياة والعدمية والإكتئاب والسوداوية؟ لقد كانت هاته الصفات هي تعريف "النضج" في حياتنا السابقة، وكان هذا التعريف سبب فشلنا في الإختبار.

-حسنا، أنا لم أفهم كثيرا مما قلت، ولكن أمر إبقاء الطفل هذا قد أنقذني. لنعد إلى الأمور المهمة، أعتقد أنني لم أولي أي أدنى اهتمام لدرجة أنسنتي لحظة رؤيتها في كتاب ذكرياتي، لكن اتضح أنَّ المغزى كله كان يصب في مجراها.

-آه، صحيح! لقد نسيت أن أسألك حول نسبة أنسنتك من قبل! كم أنا غبي! كم بلغتْ يا ترى؟

-سبعون بالمئة.

-سبعون!؟ وأنتَ الذي فقدتَ كُلَّ الثقة في أمرك! لِمَ لم تخبرني من قبل!! كنتُ سأنجحُ في طمأنتك بشكل أفضل! أراك قد بالغتَ كثيرا في الاستهانة من قدرك. آهاه، الآن قد فهمت، ربما تقارب نسب إنسانيتنا هو الذي جعلنا نفوز بتذاكر مشابهة، لجنة النعيم.

-هنالك أمر آخر، لقد وعدني بالإعتناء بعائلتي! لا أكاد أصدق الذي يحدث، إنه عكسُ الذي توقعته تماما. شكرا لك يا مصطفى، الشكر لك على أنك منحتني أملا جزمتُ باستحالته

وكنتَ سببا في حسن ظني بالإله، ولو متأخرا، لن تتصور كم أنا سعيد.

آه كم يُسعدني دوما أن يتعرف أحدٌ على الإله، لقد سُرِرْتُ من أجل ناثا أكثر مما سُرِرْتُ لنفسي، الحمد لله على ذلك، في النهاية هو غفور رحيم كما أخبر. والآن، أين هي لافتتي أنا؟ آه هاهي! هيييي أيها الملاك، هيييي، أنا هنا! ألا تسمع؟ لقد تأخرتُ عليكَ قليلا لكنني أتيت. مرحبا، أنا هو مصطفى معيوب! هل نتصافح؟ آه، لا نملك أيَّ أياد، آسف. إلهي ما أسعدني بلمسِ لافتتي، إنَّ هذا الشعور يستحق حقا أنْ تُضنيَ حياتك من أجله! أشعر باليوفوريا تتفجر! ووووهووووووووووو!

-مرحبا مصطفى، أنا ساينييل، يرجى منك أن تتبعني، سنتجه أولا إلى غرفة التجسيد ومن ثم سيتسنى لك دخول الجنة.

-سأتجه معك أينما تشاء يا ساينييل، إلى التجسيد إلى التخزين إلى التحميص، إلى أي مكان تود الذهاب إليه. أنا لن أسألك أي سؤال، أعدك بذلك. لا أعلم ماهي غرفة التجسيد ولا يهمني أن أعرف أي شيء عنها، إنَّ ثقتي بكَ عمياء، أريد فقط أن افعل أي شيء لأدخل الجنة فورا.

-يا مصطفى، إنَّ الملاك الخاص بي قد أمرني أن أتبعه، هل سنلتقي في الجنة؟ قال ناثا.

- طبعا! إنَّ الجنة هي مكان يحدث به كل ما ترغبُ فيه سنلتقي عن قريب!

- إلى اللقاء إذن!

- إلى اللقاء!

بعد أن افترقَ جمعي وناثا، اجتزتُ أنا وساينييل بوابة الدخول لا أعلمُ إلى أين تحديدا. كانت بوابةً معدنية بأجزاء علوية متعرجة ومائلة، وكذلك أعمدة متقاطعة أظنها قد فُتحت تزامنيا مع هبوط القطار بالضبط. إنني أعرف جيدا هذا المعدن، لونٌ أخضر فاتح مضيء، ليس منيرا وإنما مشعٌّ إن صح التعبير، يشبه الشارتروز لون الراديوم، أثمنُ معدن وُجدَ بعالمنا السابق. لربما يكون ذاك الصوت الجوهري الذي وردَ على أسماعنا لحظة فتح جانب القطار هو صوت انفتاح هاته البوابة الظاهرُ أنها ثقيلة للغاية، لاسيما أنها قد تكون مصنوعة من الراديوم، أحدُ أكثر المعادن كثافة في الطبيعة.

أخذني بعدها ساينييل إلى مبنى كبير شاسع، هل هو فندق؟ ما أشبَهُهُ به، بهوٌ فخم والعديد من أبواب المصاعد المرتبة بشكل متتابع. لمحنا جمعا عظيما من هالات المخلوقات، كلٌّ تشغله شاغلة، أشخصتُ النظر في هالاتهم لعليَّ أتعرف على أي أحد لكنَّ الملاك نهرني عن ذلك وأمرني بإستكمال إتباعه. اتجهنا فورا

بداخل إحدى المصاعد ثم أغلقَ بابه. كانت لوحة التحكم الخاصة به تحتوي على أزرار دائرية عديدة، ربما عشرين أو أكثر. بجانب كل واحد منها عبارة تعريف له. لم يكن تركيزي مُنْصبًّا إلا على الذي ضغط عليه ساينييل والمكتوب بجانبه "غرفة التجسيد".

لاحظتُ من خلال إحساسي بالإتجاهات شيئا غريبا. لم يكن مسار المصعد متجها إلى الأعلى فحسب، إنما كان مسارا متعرجا مرة نحو اليسار وأخرى إلى الأعلى، بعدها إلى اليمين لمدة أكثر استغراقا من سوابقه وقليل إلى الأسفل، وهكذا تواليا كأنَّه في محاولة جدية لفك تشفير خزنة ثمينة أو الوصول إلى مخرج معين لمتاهة متشابكة! ريثما انتهى فكُّ التشفير، فُتِحَ باب المصعد الذي كان هو نفسه بابَ غرفةٍ مربعة بسيطة. غرفةٌ تتوسطها أسطوانة زجاجية، قاعدتها الأرض والسطح قمتها. هذا كل ما تحوزه الغرفة، هاته الأسطوانة الزجاجية فقط، عفوا وتلك المرآة في ذاك الركن الأيمن. أمَّا الغرض منها فلا أعلم.

-اسمع يا مصطفى، كل ما عليك فعله هو أن تَلِج بداخل الأسطوانة حتى تتحصل على جسد جديد، ستستحِمُّ أولا بماء منبعه نهرٌ من الجنة كي تُنْزَعَ منك كل المشاعر السلبية، ومن ثَمَ ستشرعُ في التجسُّد، ستقضي بهذا الجسد طيلة وقتك الذي ستمكثه في النعيم.

رُغمَ الفضول الذي تملكني والرغبة في السؤال إلا أنني لم أنحث بوعدي للملاك، كانت أسئلة عديدة تختمر في رأسي المزعوم أنذاك. ما نوعُ الجسد الذي سأحظى به؟ هل هو جسدٌ مخالف كلية لما اعتدتُ أن أكون عليه؟ أم أنه نسخة معدلة بشكل يتطابقُ ورؤيتي المرادة؟ تلك الهيئة الفضلى؟ أم أنَّ الهيئة الفضلى هي فقط لمن عملَ جاهدا على بلوغها في حياته السابقة؟ أولئك الرياضيون الصالحون الذين بذلوا الآلاف من الساعات في قاعات كمال الأجسام؟ هل من العدل أن يُحظى الجميع بهيئة فُضلى؟

أسواءٌ هم الذين بذلوا في ذلك والذين لم يؤدوا ولا تمرين ضغط واحد في حيواتهم؟ ما المعيار لذلك يا ترى؟

على كلٍّ، أنا لم أنبس بأي كلمة لساينييل، احتفظتُ بأسئلتي هاته لنفسي. كل الذي فعلته هو ما أمرني به. ولجتُ إلى الأسطوانة نصف المفتوحة وما إن أَغْلَقَتْ على نفسها بنصف دورة حتى بدأ الماء ينساب من كل جهة، أو بالأحرى شرعَ في الرّش، من فوقي ومن تحت، من جانبَيْ ومن كل مكان. إنَّ هذا الشعور يشبه شعور أخذ الدش في ذاك العالم السابق، لكن بميزة واحدة اضافية، أشعر براحة غريبة لأنَّ "أشياءً" معينة تنبجسُ مني حرفيا. كأنني أتخلص "فيزيائيا" من كل مشاعر الخوف والملل والحسد والسوداوية والغل والكره والغضب والضعف والعجز والكسل، وكل ما شابهها من تلك المشاعر السلبية! كي أصفُ هذا الشعور يا ترى؟ لم يسبق

لي يوما وأنْ شعرتُ بمثل هذا النقاء و هاته الخفة، لستُ أتحدث عن النقاء بمفهوم النظافة، بل النقاء كطهارة، كماءِ بئرٍ عذب أو ملمسُ ريشة حريرية لطائرٍ صغير، كأنني بشرةٌ لرضيع تمَّت معالجةُ جلده بمستحضرات العناية.

أمر طبيعي أن تستغرق عملية " التطهير" بعض الوقت، أليس كذلك؟ بما أنَّ عملية التخلص مما علِقَ بك طيلة عُمرٍ كامل ليست بالأمر الهين، نحن نتحدث عن تراكمِ عشرات السنين لمشاعرَ يتمُّ تداولها تقريبا يوميا. لا أعلمُ تحديدا كم استغرقت العملية، لكن استنادا إلى كمية الماء المستعملة فإنه يبدو أنني كنت مشبَّعا للغاية بالمشاعر السلبية. لم أعد أعلم بالضبط هل كنتُ شخصا صالحا أم سيئا، أستغربُ حقا كيف أمكنني أن أحظى بتذكرة إلى الجنة وأنا طافح بكل هذا؟! لعلي الآن فقط قد فهمتُ ما الذي عناه الصوت حين قال أنني بفضل الله ورحمته وغفرانه قد تمكنت من الفوز بمقعدي، ولو تمَّ الحسابُ حقا دون أي مغفرة من الله ولا رحمة لكنتُ ككثير ممن هم الآن يتمتعون بالنعيم في جانبٍ لا يود أحدهم أنْ يُذكَرَ فيه اسمه!

توقف الماء عن التصبب أخيرا، وبدأ ما يشبه الهواءَ الجافْ يملؤُ الأسطوانة. أظنه بغرض تجفيفي من قطرات الماء المتبقية. أعتقد أنه يجب أن أكون "نقيا" كلية كي يبدأ التجسد، لأنه بُعيْدَ عملية التجفيف مباشرة شرعت الأسطوانة في رفع درجة حرارتها

إلى مستويات عليا محسوسة، لربما بغرض الإزالة الكاملة لما تبقى من الشوائب، تماما كما كان يحدث في الدنيا حين تود أن تقوم بتنقية أي معدنٍ، فتقوم بتمريره على درجة حرارة مرتفعة.

إلهي ما أعظمك، إنَّ عملية الخلق قد بدأت، أو التجسد كما قال الملاك، كي نسمي الأشياء بمسمياتها. وأنا أرى من خلالي كل جزئية من جزيئاتي تتجلى فيَ أمام ناظراي! هاهو عمودي الفقري "يُخلَقُ" وعظامي "تتشكَّلُ" وعروقي "تتكوَّنُ" وأعضائي "توضع" كلٌّ بمكانها المخصص. وهاهي عضلاتي "تُنسجُ" وجلدي "يغطيها"، وكلُّ ما سبق ذكره يُربطُ بعضه ببعض في آنٍ واحد! إنَّ لي الآن ذراعان ويدان، ورجلان وقدمان وكتفان، وها أنا أتحسس بيداي إن كان ليَ وجه وفم ولسان وأسنان، وأنفٌ ووِجنتان وعينان، وخصوصا أُذنان. إنَّ أشدَّ حاجاتي الحسية هي للسمع قبل كل شيء، أود أنْ أستمع بحرصٍ إلى الموسيقى التي أهوى والتي سأستكشفُ، آه كم أشتاق إليها! إنني لم أعد أنظر من "خلالي" كما كنتُ أفعلُ في البرزخ، أنا لم أعد غير مرئي بعد الآن! أنا متجسد! وأخيرا لديَّ بدنٌ!

ريثما انتهت عملية التجسد، أعادت الأسطوانة خفض درجة حرارتها إلى مستوى حرارة الغرفة من جديد، وعاود ما يشبه الغاز الرش أيضا كي يحدث التبريد و"يتصلب" الجسد وتُنحَتُ معالمه التفصيلية إن صح الوصف، خصوصا منها العضلات وعظام

الوجه، كالوجنتان والجمجمة، كانَ غازًا شديد البرودة، كأنه نيتروجين. تمت مهامُ الأسطوانة بنجاح وفُتحَ بابُها الدائري بنصف دائرة، خرجتُ منها كما يخرج الطفل حديث الولادة من رحم أمه، ولكن دون حبل سري يتدلى من سُرتي، لأنَّه لا سُرَّةَ لي الآن. خرجتُ كذلك بفورانٍ ملتهب متصاعد من جسدي الجديد، يشبه تماما تصاعد بخار الفولاذ المذاب لحظة خروجه من بؤرة ماءٍ بارد.

-مصطفى، يمكنُ لك الآن النظر إلى هيئتك الجديدة في تلك المرآة، وحين تنتهي من ذلك قُم بارتداء الملابس الموضوعة بجانبها.

اتجهت إلى المرآة وكُلِّي حماسٌ لرؤية شكلي الجديد، أمعنتُ النظر في نفسي، وأحسستُ باندهاش وذهول عظيمين لما أبدو عليه، إنني على هيئتي الفضلى التي تمنيتها دوما! جسدٌ ثلاثينيٌّ ممشوق بعضلات مفتولة. نفس ملامحِ وجهي ولكنه خالٍ هاته المرة من تلك التفاصيل الصغيرة التي كانت تزعجني فيه قديما تلك البثور القليلة المنتشرة على ربوعه بشكل استراتيجي قد ولَّتْ ولو على قِلَّتِها إلا أنها كانت تنجح غالبا في جعلي أشعر بالنقص تجاه نفسي. وتلك الأسنان الصفراء الناتجة عن نيكوتين السيجارات قد أضحت بيضاء ناصعة، بل وزال اعوجاجها وأصبحت مرتبة على مستوى واحد كأسنان مُشط سُلِّمَ لتوه من المصنع. حتى رائحة فمي قد ولى عهدُ نتانتها. ماذا عن تلك

النتوءات المتموضعة في ظهري؟ هل ماتزال موجودة؟ تحسستُ موضعها بيداي ووجدتها قد اندثرت. وذاك القِصَرُ في الطول الذي جعلني كالقزم وسط أقراني من الأساتذة قد ولى بعيدا دون رجعة إنني الآن بطول مثالي جدا. أما عن خصلات شعري فإنها لا تزال بنفس رطوبتها المعهودة ونعومتها الحريرية، كما أنَّ لونه الأبيض قد بقي على نصاعته، كان شعري الشيء الوحيد الذي كان يجعلني أشعر بالرضى حول ملمحي، أحببتُه دوما ووددتُ لو يكون بإمكاني الحفاظ على لونه الأبيض حتى ولو أصبحتُ شابا مرة أخرى. قد تحقق إذن ما تمنيت، لقد أصبحتُ أوسمَ وأكمل وأفضل وأجمل بفضل الخالق، فتبارك إلهنا أحسنُ الخالقين!

التقطتُ الملابس من أمام منضدة المرآة ودققتُ فيها جيدا بينما كنتُ أفرُدُها. في حقيقة الأمر لم تكُن "ملابساً" بالمعنى الكامل للكلمة، بما أنها كانت مجرد قطعتين من قماش حريري. صحيح أنه كان قماشا عال الجودة وناصع البياض، لكنها كانت بغرض وحيد فقط وهو تغطية جسمك: قطعة للجزء السفلي مزودة بدبابيس بسيطة كي لا تَسقُطَ عنك أثناء السير، وقطعة تحيط بها جزءَك العلوي. لكنني أحببتُ مظهرها كثيرا عليَّ، إنَّ جمالها الحقيقي كامنٌ في بساطتها ولونها الأحادي، هل يوجد ماهو أجمل من لونٍ أبيضَ لا يشاركُه أيُّ لون آخر؟ تماما مثل الثلج. كما أنها ذكَّرتْني بالملابس التي كان يرتديها الحجاج المسلمين أثناء تأديتهم

لشعيرة الحج الخاصة بهم، لطالما وددتُ أن ارتديها من قبل لولا أنني لم أذهب إلى مكة قط.

-الآن أنت "مناسبٌ" لدخول الجنة، هيا بنا. قال الملاك.

غادرنا الغرفة هاته المرة من الباب الثاني لها، بابٌ خلفي لم ألحظْ وجوده في بادئ الأمر لأنه كانَ المرآة نفسها! بُعيدَ أنْ نظرتُ مطولا في مظهري باللباس الأبيض وأخبرتُ ساينييل أنني مستعد للمرحلة القادمة، حتى قام بفعل غريب تمثَّل في الضغط برفق على بقعة مربعة صغيرة بجانب المرآة، ما أتاح لها الإنفتاح بسلاسة، والأغرب أنَّ هذا الباب كان بابا لمصعد آخر، المصعد الذي أفشل كل توقعاتي بخصوص اتجاهنا تماما مثل سابقه. كنت أظن أننا سنعاود الهبوط إلا أنَّ ساينييل قد ضغط الزر الوحيد المتوفر بجانب زر "الغرفة"، على عكس المصعد الآخر المدجج بالأزرار الكثيرة، ومتشابك المسارات وصاحب المتاهة. هذا المصعد لا متاهة له ولا تعرجات، لقد أخذ مباشرة في الإتجاه الواحد، نحو الأعلى فقط. كانت العبارة المكتوبة أمام هذا الزر هي كلمة واحدة فحسب؛ "النعيم". إنه الجنة المتواجدة فوقنا مباشرة! هي مستوياتٌ في النهاية، ولاشيء يأتي "فوق" الجنة، أعاجيب هاته الآخرة لن تنتهي.

الفصل الخامس

"إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهُم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"

الآية 62 من سورة البقرة

-ما هذا؟ هل فقط يُخيَّلُ لي أم أنك تسمع هاته الألحان مثلي يا ساينييل؟ إنني أعرفها حق المعرفة!

-إختيار جيد! لحن جميل هذا الذي اخترتَهُ. إنَّ كل من يدخل الجنة لأول مرة سيستمع إلى ما يهوى من الألحان أو التراتيل أو التلاوات كترحيب خاص منها به. لقد وصلنا، يمكنك التفضل فقط ألقِ التحية كي تكون فاتحتك بها فاتحة سلام.

-والله لن أجد خيرا مما قاله الله عنا في كتابه السماوي: "الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنِعمَ أجر العاملين".

عجِبْتُ من أمري كيف أمكنَ لي تلاوة هاته الآية من القرآن وأنا الذي لم أكن أحفظ الشيء الكثير منه! صحيح أنني كنتُ أتلو بعضا ولكن لم يكن للحفظ نصيبٌ فعليٌ من وقتي! من أين أقبلَتْ هاته التلاوة؟! هل أصبحَ القرآن من مكتسباتي القبلية التي على كل منتسب للإسلام أن يحملها في قلبه كمُسلَّمَةٍ فورَ دخوله الجنة؟ ماذا عن الآخرين؟ هل سيحملُ المسيحي الإنجيلَ في قلبه؟ واليهودي تعاليمَ موسى؟ والبوذي تعاليمَ سادهارتا؟ لا أدري، ربما هكذا هو الحال وربما لا.

-إلهي ما أعظمك! سبحانك اللهم، السلام عليكِ أيتها الجنة البديعة، أيتها النعيم المنقطع النظير، أيتها البقعة الطاهرة، يا خلق الله متناهي الكمال الذي جزى به عباده الصالحين، السلام عليكم أيتها الملائكة الكرام، السلام عليكم أيها الخلق!

إنَّ دمعي يسيل بينما يميني تخطو خطوتها الأولى فوق تراب الجنة، دمعُ فرحٍ كالذي ينساب على خدَّيْ والدةٍ تتذوق شعور الأمومة لحظة استلامها مَنْ الذي انتظرت ولادته دهرا من الزمن بين ذراعيها المُتعبتين. إنَّ الصمت الذي يغلفني الآن هو ما يُخرِصُ المرء حين يعجز عن وصف ما لا يوصف. لاسيما أنَّ نشوتي هاته وذوبان قلبي لم يكونا لِيُوجدا إلا لقطعة الموسيقى العذبة التي تُعْزفُ الآن في الأرجاء، المقطوعة التي لطالما تمنيتُ إياها أنْ تكون الوحيدة التي أستمعُ إليها حين أدخل الجنة. تحفةُ الموسيقار يوكي كوراموتو "وداعا". بعيدا عن أحزان "الوداعات"، بعيدا عن اسمها المُنافي للأحاسيس السعيدة التي تنفثها في مستمعها، إلا أنني كلما استمعتُ الى ألحانها رأيتني أشعرُ بالدفئ والسلام والقداسة. الأحاسيس التي تغمركَ حين تتأمل شروقَ شمس ربيعية فوق جبال مكسوة بثلجِ فبراير المتأخر، أو لربما أنَّ يوكي نفسه قَصدَ بإسمها الوداع للمآسي والأحزان والخطايا والحسرات وخيبات الأمل.

إنَّ هذه التي تجري نحوي هي والدتي، رباه لكمْ تبدو بغاية الجمال، لم أعهدها يوما على هاته الهيئة البهية، كنتُ أراها فقط في حالة شقاء وتعب وإنهاك، ملمحها يسبقُ عمرها الحقيقي بأزْيدَ من عشرين سنة. انساب ذرفُ دمعي أكثر لمَّا رأيتُ روعتها كشابة بينما هي تحتضنني بقوة، حضنا لم تمنحني إياه قط فيما سبق، تذكرت في نفس الآن قسوة الحياة السابقة عليها. إنَّ أمي هي أحقُّ أهل الأرض بمكانتها هاته في الجنة، ولو تطلبَّ الأمر التضحية بمقعدي لإعطائها درجة أعلى في أعلى عليين لفعلتُ على الفور ودون أي تردد، منحتنا نفسها وحياتها وكيانها، ألا أمنحها وقتي وحسناتي وكل ما لي؟ سأحملُ عنها ذنوبها وكل شيء، ولتزرُ وازرتي وزرها، كل شيء يهون لأجلك يا أماه.

-مصطفاي! أخيرا أقبلتَ يا بني! لقد انتظرناك كثيرا! كثيرا كثيرا! ألم أخبرك يا بني؟ ألم أقل لك أنَّ الإله يُخبئ لنا ماهو خير وأبقى؟ إنَّ كل تلك الشقاءات تهون في سبيل هاته اللحظة يا مصطفاي.

-وأنا انتظرتُها بصبر فارغ يا أماه، لو تعلمين فقط كم اشتقتُ إلى رائحتك.

-هنالكَ من اشتاق إليك أكثر مما فعلتَ أنت، إنَّه أكثرنا اشتياقا لك، اذهب إلى أبيك ولا تأسى عليه لأنه لم يهرع إليك كما فعلتُ أنا، إنه خجلٌ منك.

-أبي؟! يشعر بالخجل مني؟! أين هو!

-هذا الذي خلفي.

-أهذا هو والدي؟! رباه كم يبدو رجوليا! أنا لم أتعرف عليه لأنني لم أعرفه إلا من خلال تلك الصورة القديمة الموضوعة فوق طاولة غرفة المعيشة، هل تذكرينها يا أماه؟ لقد أحْسَنَ الشقيُّ فعلا اختيار هيئته الفضلى كما أحسنتِ أنتِ الحفاظ على تلك الصورة! والدي الحبيب! لقد اشتقت إليك! تعال إلى هنا!

هرعتُ إليه بكل ما أملك من قوة في رجلاي حتى تطاير التراب من ورائي، لقد هرع نحوه ذاك اليتيم الصغير في داخلي وليس الرجل. كنتُ أبكي بشهقةٍ وكدتُ أسقط من فوري متجاهلا قطعة القماش العلوية الشارفة على الانفلات من جسدي. احتضنته بقوة حتى كدتُ أكسرُ عظامه من فرط اشتياقي (أنا لا أعلم حقا إن كانت العظام تُكسَرُ هنا أم لا). أجشهتُ أكثر فأكثر وتذكرت اللحظات القاسية التي كان علينا المرور بها دونه، تلك اللحظات التي تمنيتهُ فيها بجانبنا حتى ينزع عنا مشاعر الحسرة واليأس

وخيبات الأمل المتكررة، ويكون الكتف التي نُسنِدُ عليها رؤوسنا أنا وإخوتي كي نطمئن.
لم أستطع أن أُفلِتَهُ من قبضة يداي المعتصرتين ولو لهنيهة قصيرة لعدم استعيابي تواجده أمامي بشحمه ولحمه وروحه، إنه والدي هذا الذي أحتضن! أنا لن أفلتَهُ حتى لا يهرُب مني، لن تسرقه أي قوة مرة أخرى منا، أنا أحبك يا أبي، أنتَ لن تستطيع تصور كم أحبك!

-ألستَ غاضبا مني؟ أنا آسف على كل شيء يا بني. وأجهشَ هو أيضا.

-آسف؟ على ما الأسف يا أبتاه؟!

-لأنني تركتُكَم تمرّونُ بكلِّ الذي مررتُم به، لقد شاهدت كل شيء وشعرتُ بالحسرة في كل لحظة كنتم فيها أطفالا تتمتمُون فيها طالبين إياي. لقد أردتُ وبشدة أن أتخلى عن كل هذا النعيم كي أعود إليكم وفقط، ولكن السبيل إلى ذلك غير متاح. أنا قد بلغتُ مرحلةً أصبحتُ أرجو فيها موتكم يا ولدي العزيز! هل تصدق؟ رجوتُ موتكم فقط كي أستطيع احتضان والدتك احتضانك أنت وإخوتك بأسرع وقت! سامحني على أنانيتي يا بني.

-لا تأسف يا أبتي، أنا نفسي قد تمنيتُ فيها موتَ جميع من أحب كي يلتحقوا بي.

- لكنكم من جانبٍ آخر، جعلتموني أشعر بالفخر تجاهكم، تلك المقاومة الضارية التي أبديتموها في مواجهة الحياة دوني، لقد كنتُ أبا فخورا بجد. أنتَ نفسُكَ حين تخرجتَ من الجامعة بتقدير امتياز! حين كنتَ سببا في تعليم أولاد الناس أشياء مفيدة في حيواتهم، حين كنت تقدم لهم يد المساعدة كلما استطعت. لقد كنتُ أحكي لوالداي وأصدقائي عنك في كل موقف كنتَ فيه إنسانا رائعا، كنتُ أقول أنني حتى لو كنتُ بجانبه، لم أكن لأربيه أفضل مما هو عليه أنذاك، هل ترون ذاك الخلوق؟ إنَّ ذاك الذي ترون هو ابني! ابني!

من شدة تأثري بخطاب والدي أصبحتُ بُكمًا لم أقوَ على النبس بأي كلمة، إنها الكلمات التي تُقتُ إلى الإستماع إليها دوما التي استحضرتُها في خيالي قُبيلَ كل ليلة هممتُ فيها بالنوم. هانني الأمر في كل مرة كنتُ أرى فيها والدا محبا يغدقُ على اولاده بالحب ونظرة الفخر في عينيه. شعرتُ بالغيرة الشديدة من أولئك الذين امتلكوا آباءً محبين، كدتُ أحسدهم، أو لعليَّ فعلتُ أصلا. إنَّ شبيهة هاته الكلمات التي خرجت من مكنون أبي كانت الحافز الوحيد والأوحد لي لمحاولة فعل الصواب واجتناب العمل السيء كنت أقول دائما أنني بفعلي ذلك أكسبُ رضا والداي الموجودان هنالك في السماء، كنتُ أشعرُ بيقينٍ داخلي أنهما يشاهدانني دوما

من مكانهما في الأعلى، وأنَّ عليَّ أن أجعلهما فخورين بي وأن أكون كالصدقة الجارية، أنْ أُحْتَسَبَ كولد صالح يدعو لهما ويدرُّ عليهما حسنات ويدرأُ عنهما سيئات من حيث لا يحتسبان.

ساد بعد الخطاب صمتٌ طويل بيننا ونحن على تلك الحالة انضمت بعدها والدتي إلينا وأخواي وشاركونا الحضن الهنيئ تهون الحياة كلها في سبيل لحظة مجيدة كهذه. دُمنا كذلك لمدة معتبرة من الزمن استشعرنا فيها حب الوالدين والعائلة من جديد وأحسست بعدها بحنين مباغت لأولادي، وكأنَّ الأبوة فيَ قد أزهرت لحظةَ احتضاني لوالداي! هل يا تراني سأكون قادرا على مشاهدتهم من هنا مثلما شاهدني أبي؟ هل سيُبلون بلاءً حسنا؟ أعلم جيدا أنَّ وقعَ مغادرتي عليهم كان أخفَّ من وقعِ يُتْمِي أنا عليَّ، لأنهم قد عاشوا معي القدر الكافي الذي يجعلهم قادرين على سرد قصصٍ تستحق أن تروى لأولادهم بشأنِ جدهم.

هل سيكونون بخير؟ هل سيستطيعون النجاة بدوني؟ أم أنني أبالغ الآن زاعما بأنْ جعلتُ من نفسي رجلا لا يُستغنى عنه في أسرته؟ لربما هم في حال أفضل دون أبيهم. على كل حال، أتمنى حقا أن يكون أبنائي الأعزاء سعداء وبصحة جيدة، هذا كل ما يهمني بخصوصهم، بي أو بدوني.

إنَّ النعيم يشبه إلى حدٍّ بعيد "المقاطعة" قرية الهوبيت في رواية "سيد الخواتم"؛ انتشار منازله الجميلة والظريفة استراتيجي يسرُّ الناظرين، ليسَ له شوارع محددة، طرقه معبدة بأحجار رمادية داكنة وقديمة، تِلاله لطيفةٌ تموجاتها، اخضرار عشبها القصير الندي مبهجٌ، كأنها أرضية ملعب كرة قدم سهِرَ مهندسُ العشب على أنْ تبدو في أبهى حلتها غداة مباراة نهائي كأس عالم. غزيرُ الألوان، صفاءُ زرقةِ سمائه دائمٌ، جريان أنهاره هادئ لا يُسمعُ خريرها، صِغَرُ جسوره سينجحُ حتما في بث الرقة والدفئ في قلبك، لو كنتُ أعلمُ أنه على ماهو من الروعة هاته، لو علمتُ ماهيته من قبل لأتيتُ من فوري!

-تعال يا بني، تعال معي لنزور حبيبًا، أفترضُ أنك ترقَّبتَ لُقياه أكثر من لقيانا نحن.

-إلى أين يا أبتي؟ من هذا الحبيب الذي تتحدث عنه؟

-أعلمُ أنك ستُسرُّ جدا برؤيته، سيبادلك السرور أيضا. هو يُسرُّ دائما بلُقيا الذين يزورونه، خصوصا منهم الواردين لأول مرة.

أخذني والدي من يدي وبدأ يجرني كطفل صغير أخذه والده إلى أول يوم دوامٍ مدرسي خشية التأخر عن الميعاد، لا أحد يود أن يتأخر عن المدرسة في أول يوم! كانت والدتي وإخوتي يتبعوننا بهرولة طفيفة، أحسستُ أنَّ الإله بدأ يعوضني عن شعور اليتم

الذي عانيتُ منه طيلة ما سبق، أشعرُ أنني طفلٌ الآن أكثر من كوني رجلا، أعتقد أنَّ لإخوتي شعورا مماثلا كهذا. لكن من هذا الحبيبُ الذي يتحدث عنه أبي؟ هل هو جدي يا ترى؟ حسنا، أنا لم أكنْ في ترقب فعلي لرؤية جدي يوما. لا، حتما ليس جدي، مع أنَّ رؤيته ستكون أمرا لطيفا.

في الحقيقة أنا سأعرف بُعَيْدَ هاته اللحظة بالضبط لأنَّ وجهتنا لم تكن بعيدة عن مدخل النعيم. إنها دارٌلطيفة تشبه تلك الديار الريفية البسيطة ذات السقف الآجُري والأسوار الحجرية المطلية بالطين والجير. وجدنا حول تلك الدار بعضا من الملأ المتجمعين، أفشى أبي السلام عليهم ثم استأذنهم من أجل الدخول، لا أدري لِما فعلوا ولكنهم قاموا بإفساح الطريق لنا كي نشق بها إلى الداخل، وما إن فعلنا حتى سمعتُ كلاما صادرا من أبي جعلني قاب قوسين أو أدنى من فقدان وعيي.

- السلام عليك يا محمد يا رسول الله.

محمد رسول الله؟! أ تقصد محمد ابن عبد الله يا أبي؟! محمد النبي؟! الصادق الأمين؟ هل هذا محمد عليه السلام فعلا؟ لا أصدق الذي أراه! رباه ما أشد دهشتي وذهولي، سبحانك اللهم وبحمدك، إنه هو حرفيا! أنني أقفُ أمام خير مَن خلق الإله مِنْ بني الإنسان! إنَّ هذا لهو رسول الله! هل تصدقون؟ إنه محمد!

اغرورقت عيناي بغتة في اللحظة التي لمحتُ فيها رؤيا وجهه النوراني، ارتميتُ في أحضانه بعفوية تامة دون أي وعي مني ولا قصد، لم يبدُ لي أنه من غير اللائق فعل ذلك ولكنني فعلت. لقد ارتميتُ تلقائيا في أحضان منبع خير وحب ورحمة وسلام وإنسانية وجمال، من ذا الذي لن يعاندني الفعل؟ رفعتُ رأسي ببطئ عن حضنه كي أتبين ملامحه بالتفصيل، لكنني لم ألمحها جيدا لضبابية أصابت عيناي جراء غزارة دموعي. هممتُ بمسحها لعليَّ أبصرهُ عن قرب، إلهي، لا أصدق الذي أرى.

بدأتُ أنقلُ مواضع نظراتي في وجهه الكريم وأتحسس لحيته البيضاء بيداي وأنا أخرص، وكأنني شخص أعمى يتحسسُ أمرا يود لو يتعرف عليه عن كثب لأنَّ عيناه قامت بخيانته، كأنني أُبصر لأول مرة في حياتي. خدعتني دموعي مرة أخرى بعد محاولة فاشلة في التخلص منها وعادت الضبابية إلى عيناي، أجشهت هاته المرة بالبكاء مصحوبا بصوت مسموع. إنَّ روحي تتطهر لا شيء يطهر الروح أفضل من الدموع.

- السلام عليك يا حبيبي، السلام عليك يا خير من خلقَ الله

أنا آسف يا رسول الله، أنا آسف آسف جدا جدا جدا

لقد كنتُ مقصرا تجاهك بالذكر والصلاة عليك، لقد أحببتك

جدا يا رسول الله، لكنني بخلتُ بالصلاة عليك، أيُّ حب هذا

الذي أدعيه؟! من ذا الذي يحب أحدا لا يذكره؟ شقي ومحروم من ذكرك كنتُ، اعفُ عني أنتَ العفو، سامحني يا رسول الله. اعذرني على عدم التعريف بنفسي، إسمي مصطفى.

-وعليك السلام يا مصطفى، إنني أعلم إسمك جيدا. لا عليك يا بني (قالها وهو يبتسم) امسح دموعك هاته عنك. وإن لم يكن بلسانك فإنك كنتَ تذكرني بقلبك، لقد كنتُ أدعو الله لك بالتوفيق والتيسير، لأنك شخص طيب ذو قلبٍ سليم. لقد كنتَ تنشر الفرح والسعادة وسط الناس، كنت كريما ومحبا لمدِّ يد العون وأنا القائل أنَّ خير الناس هو أنفعهم لهم، بوركتَ أيها الرجل الطيب، تفضل معي، هلمُّوا أنتم أيضا يا أبنائي.

مَن هؤلاء!؟ أنا أعرفُ هاته الهالات! إنهم عمر وادريسا ونوح وفاطمة! حتى جون هنا؟! إذا هكذا كانت تبدو أجسادهم! إنهم بعضُ أولئك الأشخاص الذين اجتمعنا من قبل معهم أثناء طريقنا إلى المحكمة! نتيجةً لشرودي ودهشتي لم أرهم ماكثين بجانبي.

-إذن لقد فزتم أنتم أيضا أيها الرفاق! السلام عليكم يا رفاق الدرب، تذكرون درب المحكمة، أليس كذلك؟ طبعا تذكرونه. أنا مسرور للغاية برؤيتكم، خيرُ المجمع، والله إنه كذلك.

-وعليك السلام يا مصطفى، ونحن فرحون أكثر بلقائك. قال الجميع.

-ماذا عنكَ يا جون؟ أ لم تقل من قبل أنك مسيحيٌّ؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟ (بدأ الجميع يضحك)

-لقد التقيتُ بالسيد المسيح مسبقا، ولكنني لطالما أردتُ أيضا أن ألتقيَ محمدا نبي العرب، لقد قرأتُ عنه كثيرا ووددت دوما لو ألتقيه في حياة أخرى. إنه شخص لطيف، تماما مثلما قرأت الشكر للرب على تلبية أمنيتي هاته.

خرجنا من الدار نتبع رسول الله وشرعنا نمشي وسط زقاق لبضعٍ من الزمن. إلى أين نحنُ ذاهبون؟ لقد استحييتُ أن أسأل محمدا عن وجهتنا، لكن من ذا الذي له القدرة على أن يسأل نبيا عن الوجهة؟ سلِّمْ قلبك فقط واتبعه، ذاك هو الإيمان بحق. أفضى الزقاق بنا إلى نهرٍ من الأنهار هادئة السريان، انحنى النبي بجانب ضفافه وضمّ يديه وغمسهما في اليَّم بغية ملئهما.

-أقرئوا هذا النهر السلام، هل عرفتَه يا مصطفى؟ ماذا عنك يا فاطمة؟ تقدمي إلى هنا.

بقيت فاغرا فمي أنظرُ شارد الذهن، لم أعهد هذا النهر ولم يكن لملمحه أن يبعث أي شيءٍ في نفسي من الذكرى، أما فاطمةٌ فأجابت:

-إنه نهر الكوثر يا رسول الله، النهر الذي إنْ غرفَ أحدٌ منهُ غرفة من يديك لم يظمأ بعدها أبدا، السلامُ عليك أيها الكوثر.
ثم حنت رأسها كي تشرب من بين يدي النبي.

-هذا هو نهرُ الكوثر إذن! إذن له وجود هو أيضا!

شربَت فاطمة وشربتُ أنا وفعل الجميع كذلك بما فيهم جون. أثناء ذلك كادت تسقط عني قطعة القماش العلوية مرة ثانية لمَّا هممتُ بإمالة رأسي، بل وتبللت بفعل الماء الجاري. كان ذلك الماء أعذب ماءٍ بلل ريقي يوما، لم يكن ذاك الماء الذي من شدة عذوبته لم تشبَع ووددتَ لو أنك تستزيد منه قدر الإمكان، بل كان الشرب منه بمقدار معين كفيلا بأن يجعلك تشعر بالشبع واللذة. أ كان السرُّ في ذاته، أم في يدي رسول الله المباركتين؟ أرجحُ الاقتراح الثاني لِما سمعْتُ العجبَ العُجاب عن بركة محمد ابن عبد الله في سيرته الدنيوية. كما لم أعجَب أيضا لشعور السلام الذي ساد ريثما أنهينا الشرب، فقد كنا في حضرة نفحة السلام نفسه، سلامٌ مبارك ذاك الذي ملأ أرواحنا.

-يا رسول الله، اعذرني على سؤالي هذا، ولكني أود لو أستعلم عن الآخرين، أين هم؟

-من تقصد بالآخرين؟

-أقصد أهل بيتك الأطهار وصحابتك المبجلين. عليٌّ ابن عمك وأباه، عمر بن الخطاب وعمار بن ياسر، أبا ذر وريحانتك فاطمة وسِبْطَيْكَ الحسن والحسين، صديقك بلال بن رباح ووالداك أيضا يا رسول الله. أود رؤية جدك عبد المطلب كذلك ومُرضعتك حليمة السعدية. إنهم كثيرون الذين أود أن ألتقيهم. آه، وخديجة زوجُك، لقد نسيتُ ذكر الكثير، لكن أين أجدُهم يا ترى؟

ابتسم رسول الله وضحك ضحكة خافتة ثم أخبرني بصوتٍ هادئ أنَّ كونه رسول الله لا يعني بالضرورة أنه يعلم أماكن الآخرين الآنية، لأنَّهم مفترقون كلٌّ مشغول بأشغاله. لكنه طلب مني أن أعود إلى داره وقت العشاء كي أتناول الطعام معه وهنالك سألتقي بالجميع عنده.

-أنت تدعوني على العشاء في بيتك يا رسول الله؟ كريمٌ ابن كريم كما سمعنا عنك حقا.. أشعر بالخجل من طلبك هذا، وددت لو أنني أنا من قمتُ بدعوتك ولكنني حديثُ عهدٍ بجنة النعيم فسامحني.. لا منزل لي ولا مطبخ ولا غرفة طعام ولا أيُّ شيء! لكني ريثما أنتهي من إيجاد منزلي الخاص بي، سأطهو لك كل ما تشتهيه نفسك من لذائذ الطعام! لكَ ولجميع أحبائك! حتى وإن لم أكن يوما طباخا ماهرا (ضحكَ الجميع). سمعتُ أنك تحب لحمَ ظهر الشاة وكتفها، سأبحث في النعيم شبرا شبرا دارا دارا، وإن استدعى

الأمر جنة بجنة حتى أعثر لك على أكثر الشاء اكتنازا وطراوة.. وإنْ لم أنجح في طبخها بالشكل اللازم فسأبحثُ لك عن أفضل الطباخين لطهيها ووووو... سأجعلها مأدبة عشاء لن تنآى عن ذكرها أبدا!

ضحك الجميع من طريقة كلامي المتسرعة والمتلعثمة وكأنَّ بالأفكار تتهاطل في توالٍ في ذهني، ولكن الكلمات في نفس اللحظة تنفذ وتهرب باستمرار مني. شاركتهم الضحك بعد وهلة حين أحسست بغبائي وأنا أجدُ صعوبة في تركيب جملي. أنا سعيد ومسرور لأنني أوصلت ما أردت ايصاله، وأكثر سعادة كوني بجانب أصدقائي ورسول الله معنا. لم أشعر بهكذا سلامٍ قط، إطلاقا إنه وقتٌ رائعٌ بحق هذا الذي نمضيه.

عدنا إلى دار رسول الله حيث التقينا بادئًا، ووجدنا جمعا آخر ينتظر لقاءه. قبل أنْ نودعه ويهم بالدخول مع الجمع الجديد إلى داره، لمحتُ الأخيرة متمعنا وإستغربتُ شكلها البدوي، دارٌ ريفية جد بسيطة. استفسرتهُ عن الأمر عن عجلة حتى لا أؤخرهُ عن ضيوفه؛ لِمَ لَمْ يطلب منزلا أكثر فخامة ولياقة وراحة وجمالية؟ لِمَ لَمْ يُؤثر قصرا مهيبا يليق بمكانته وهيبته؟ إجابته كانت بمثل بساطة منزله: "لأنني أحببتُ منزل جدي العائلي القديم الذي تربيتُ به، وارتأيتُ أن يكون المنزل الذي أقيم به حين أسكنُ الجنة".

إنَّ رغبات الجميع تختلف. قد يستغربُ محبُّ النساء كيف لآخر أن لا يحيط نفسه بما لذ له وطاب من النساء الجميلات العديدات في الجنة مثله هو، لِمَ هذا الآخر قد تمنى فقط الإقتران بزوجته حصرا دون سواها؟ أو على الأقل لِمَ لا يُلحقها بأخرى تُشاركها فيه؟ وقد يحتار عاشق الطعام كيف لصديقه أنْ لا يشتهي أشهى المأكولات كما تفعل نفسه، ما خطبهُ هذا الذي يتناول كل ما توفر دون أي مشروطية؟ كيف له ألا يُقَدِّرَ لذة اكتشاف صنفٍ جديد من الأكل؟ قد يتساءل محب الطعام. وربما يسخر كُثُرٌ من ذاك الذي يهوى فقط ما كان له في الدنيا دون أي زيادة أو نقصان، متحججين بأنَّ البخل قد نال منه مناله. لكن ما لم يفهمه معظمنا، أنَّ الناس أذواق، ذوقي لن يلائم ذوقك، وما يجعلني سعيدا لن يجعلكَ كذلك. لذا ما كان علينا فعله هو الكف عن المقارنة بين حيواتنا وحيوات الآخرين، ميولاتنا والخاصة بهم، وافتراض أنَّ العالم يجب أن يسير وفقًا لأهوائنا وحسب.

قررت فاطمة وادريسا وعمر ونوح البقاء مع رسول الله، أما جون وأنا فارتأينا مفارقتهم. عن نفسي، أردتُ أن أناديَ على أبي وأمي اللذان لمحتهما بجانب نافورة مياه فوارة يتجاذبان أطراف الحديث. لكنني أحجمْتُ عن ذلك في آخر لحظة، تمعنت في ذاك المشهد جيدا وذرفتُ الدمع (يبدو أنَّ ذرف الدموع لن ينتهي هنا أ

لا نهاية لها؟). هل يا تراني أرى لحظة شبيهة بلحظة تعارفهما لأول مرة؟ هل كانا شابين هكذا؟ إلهي تعلمُ كم تمنيت دوما أن أرَ مشهدا مثيلا كهذا يحدثُ قُرابتي مذ كنتُ طفلا صغيرا، وها أنتَ تلبي لي طلباتي وأمنياتي واحدة بواحدة. لبثتُ على تلك الحال أنظُرُ إليهما وكأنني أعوضُ عن نفسي الذي فاتني من اللحظات المحرومة، كنتُ أهمُّ بإشباع جوعي منها ببطئ حتى باغتني صوتٌ مفاجئ من ورائي.

-مصطفى، لن تصدق أبدا مع من كنتُ لتوي؟! سأمنحك فرصة كي تحزر.

-إلهي! هل لكم اتفاقٌ من نوعٍ ما؟ كلكم سواءٌ في محاولة جعلي هلعا بشكل مباغت! على الأقل كان بإمكانك أن تُحدِّثني من الأمام يا ناثا. اوووف، على كلٍّ. إنك تبدو أنيقا جدا، خصوصا وأنَّ حزنك انحسر عنك. لقد أصبحت أكثر إشراقا، كما أنَّ اللون الأبيض قد لاق بك كثيرا، رباه تبدو وكأنك البابا نفسه! هل كانت لك مثل هاته اللحية الطويلة من قبل؟ أم أنها إحدى أمنياتك؟

-أجل، لم يكن لوجهي القدرة على إنماءِ لحية متناسقة بهذا الشكل. كانت مليئة بالثغرات الملحوظة، لذا امتنعتُ عن إطلاقها. لهذا، أجل كانت هاته إحدى أمنياتي. ركز الآن، هل سمعتَ جيدا ما الذي كنتُ أقوله من قبل؟

-نعم سمعتك، أعلم تحديدا مع من كنتْ، انظر لتوك كم أنا عبقري. لقد كنتَ مع السيد المسيح، أليس كذلك؟ قلتُ وأنا أشير بسبابتي نحوه بنبرة تحدٍّ.

-كيف عرفت؟! هل كنت تتجسس عليَّ أم ماذا؟ أنا لم أرك في الجوار.

أضحكني اتهام ناثا لي بالتجسس ملئ فاهي، وارتأيتُ أن أكمل اللعبة معه حتى أجعله يشعر بالخوف.

-نعم كنتُ أتجسس عليك، لقد شاهدتك من بعيد وقررت أنني سأتعقبك وأرى الذي ستفعله. لا أنا أمزح فقط، لقد علمتُ ذلك لأنني أنا نفسي قد التقيت بمحمد النبي، أظنك تعرفه؟ لكن في الحقيقة كنتُ أظن أنك ستلتقي بشخص آخر. أعني، تعلم بما أنك كنتَ ملحدا.

-أنا لم أكن ملحدا بالمعنى التام يا مصطفى، بغض النظر عن وساويسي السابقة إلا أنني أحببتُ عيسى حقا. ثم صَمت.

-أظن أنَّ كل من سيدخل الجنة سيلتقي قدوته الدنيوية فيها شرطَ أنْ يكون من الصالحين. دعني أعطك مثالا، دافيد، احزر من تمنى لقاءه؟

-موسى النبي؟ أظن.

-بالضبط، هذا ما أظنه أيضا، سنبحث عنه لاحقا ولنسأله عن ذلك.

-حسنا، ماذا عن الملحدين منهم؟ من سيلتقون؟ هم حتما لم يتمنوا لقاء أي نبي لأنهم لم يؤمنوا بهم يوما.

-ومن قال أنَّ علينا أن نلتقي الأنبياء فقط؟ أنا قلت الإلتقاء بقدواتنا من الصالحين. فرونسوا مثلا، رغم أنه لم يصرح بذلك إلا أنَّه من خلال حديثه استنتجَ جميعنا أنه كان ملحدا. ولكن لو قُدِّرَ لنا أن نلقاه هنا إذا ما نجح في الفوز بمكانه، فسيقول أنه قد التقى بتشي غيفارا مثلا أو نيسلون مانديلا أو أحد الذين اعتبرهم "قامات" التاريخ الإنساني، ربما تشارلز داروين، من يدري؟

-غريبٌ حكم الإله فعلا، شخصٌ ألحدَ في حقه يُدخله الجنة، بل وقد يجعله يلتقي بقدوته والذي يمكن أن يكون هو نفسه ملحدا أيضا! جنةُ ملحدين؟ يا للسخرية.

-بل أحكامنا هي التي كانت دوما مدعاةً للسخرية! من ذا الذي زَعم أن الإله لا يُدخلُ غير المؤمنين الجنة؟! إنَّ الإله يعلمُ دواخلهم أفضلَ مما يعلمونه هم عن أنفسهم، يعلم أنَّ إلحادهم أو كفرهم كان نتيجة تصورات خاطئة أنشأها آخرون عن الإله في أذهانهم. لقد صوروه لهم على غير حقيقته فما كان من فطرتهم السليمة

ك "بني إنسان" سوى أنْ كفروا بآلهتهم الزائفة، تماما مثلما كفر ابراهيم بالأصنام التي اتخذها قومه آلهة لهم. أظنك تعرف النبي إبراهيم؟

-ليس فعلا.

-أتمنى لقاءه هو أيضا، وابنيه اسماعيل واسحاق، ومن تبعه من ذريته من الأنبياء ومن سبقهم جميعا. أود لو يحكي لي نوحٌ عن الطوفان، وصالح عن ناقته، وآدم عن حادثة سجود الملائكة إليه ورفضِ إبليس لذلك، خصوصا هذا المشهد الأخير، أريد إعادة مشاهدته أمام ناظراي. أود أن يروي لي الجميع عن عملية نزول وحي الله عليهم عن طريق جبريل! صحيح، أين هو جبريل من كل هذا يا ترى؟!

-أنا آسف يا مصطفى ولكنك قد فقدتني هنا، من هؤلاء الذين ذكرت؟ لربما عرفتُ منهم آدم فقط، بما أنَّه أول البشريين.

-لا عليك يا ناثا، سنلتقيهم جميعا فيما بعد وسنتعرف عليهم فردًا فردًا، اعذرني الآن فوالداي ينتظرانني.

-حسنا، أما أنا فاعذرني، لستُ مرافقك كي أتعرف عليهم لكنني سأفعل في المرة القادمة، لي مشاغل أخرى حاليا، إلى اللقاء!

أخبرتُ والداي بكل شيء حدث مع رسول الله وكانا جدَّ سعيدين بذلك. ثم بدأنا نتمشى في أرجاءٍ من النعيم. طلبتُ منهم

تزويدي ببعضِ من "الحيل" كي أتأقلم بشكل أفضل مع أسلوب العيش الجديد هذا، لكنهما أخبراني أنه لا توجد حيلٌ فعلية. الحيلة الوحيدة العملية هي: "كل ما أردُتهُ في حياتي السابقة سيكون متوفرا لي مباشرة"، وأنَّ سرعة تأقلمي مرتبطة بمعرفة ما الذي أريده بالضبط أكثرُ من معرفة "الحيل".

كنا تارةً نتحادثُ وتارة أخرى نصمت، وبينما هما يعرفانني بأماكن كثيرة يجدر بي البدأ بزيارتها أولا، حتى وردَ علينا ملاكٌ تبيَّن أنَّه يعرفُ والدايَ معرفة جيدة، لكنه جاء بغرض إبلاغي أنا بمكان منزلي الجديد والذي لحسن الحظ (أو لربما لأنني أنا نفسي تمنيتُ هذا فحققه ليَ الإله، ليس للحظ وجود هنا، كلٌّ مخطط ومرتب له بدقة) وُجدَ محاذيا لمنزل والداي، منزلٌ في الجنة! إلهي ما أكرمك، من فرط حماسي شرعتُ أحثهم على الإسراع في خُطاهم كي نصل إليه في أسرع وقت. أود أن أرى تصميمه وما بداخله، هل هو مؤثث؟ هل به مطبخ؟ هل يوجد به طعامٌ وسريرٌ وتلفاز؟ هاهاها، لن يكون هنالك تلفاز، ربما هنالك طعام وسرير ولكن ليس هنالك أي تلفاز! ماذا عن دش الإستحمام؟ ما هذا الذي أهذي به؟! أظنني والآن لي جسد وعقل قد بدأتُ أُجن حقا.

عرجنا على منزل والداي أولا ثم اتجهت إلى منزلي بمفردي والذي لدهشتي كان كما تمنيتُ تحديدا. بسيطٌ في تصميمه وعمليٌّ إلى أقصى حد. به حديقة بهية فيها من كل أنواع الزهور الأرضية

وأكثر، لأنني أعشق الزهور. بها أيضا أشجار ذواتُ أنواع مختلفة من الثمر. أما داخلُ المنزل فساحةٌ واسعة تحتوي على مطبخ وحمامُ دش وغرفة نوم...إلخ. كنتُ أستطيع الاستغناء عن الدش والنوم لأنَّ لا حاجة فعلية لك بهما هنا في الجنة، إلا إذا أردتَهُما أنتَ بنفسك. وحتى الطعام أيضا لأنَّ بإمكانك ألا تشعر بالجوع أبدا، وسيبقى جسدك نظيفا دائما، ولن تُحس بالتعب أو الإعياء حتى تشعر بالحاجة إلى الراحة والنوم. إلا أنني لو تحدثتُ عن نفسي، لقلتُ أنني أعتبر كلًّا من النوم والاستحمام والأكلَ مُتَعًا من متع الحياة السابقة فأرتئي الاحتفاظ بهم في حياتي الخالدة.

وجدتُ بالداخل غرفة صلاةٍ أيضا! عجيب. هل نصلي هنا أيضا؟ ألم تكن الصلاة حصرا بحياتنا التي سبقت؟ هل نصلي حتى وإن لم يكن لنا أيٌّ عائد من ذلك؟ لا حسنات هنا لنجمعها ولا سيئات لندرءَها، إذن ما المقابل منها إذا كنا قد استوفينا الغرض الرئيسي منها ألا وهو دخول الجنة؟ أم أنَّ الأخير ليس الغرض الحقيقي؟ هل من باب شكر الإله، علينا أن نصلي؟ لربما أنَّ الصِّلَة بيننا وبين الإله لم تكن يوما مرتبطة فقط بالجزاء والعقاب كما تصورنا دوما. أنت لن تُنشأ صِلةً مع أمك على ذلك الأساس، صلتُك بها غير مشروطة بأي شيء، كذلك كان لزاما علينا أنْ نفعل مع الإله. أن تكون صلتنا به دون أي ترقبّ لمكافاءات أو خوفٍ من عذابات، وأن نرى فيها مكسبا بدلا عن اعتبارها فرضا.

لغرفة الصلاة ستة أسوار زجاجية مزخرفة بآيات قرآنية ومحراب صغير، مجهزة بسجادات منثورة من الحرير، ومصاحف موضوعة فوق حواملها الخشبية، معلقة بها مسبحات مصنوعة من أحجار الزمرد. بالغرفة كذلك جهاز صوتي تُجانبهُ أشرطة سمعية لقُراء قرآن مفضلين لي. هنالك أسماء مألوفة لدي؛ عبد الباسط عبد الصمد وعنتر مسلم ومحمد الصديق المنشاوي ومحمود الشحات ويونس ايسويلص. حسنا، لن يكون بمقدوريَ لقاءُ الإسمين الأخيرين هنا بما أنهما لا يزالان ماكثين في ذلك العالم، أما عن الأوَّلين منهم فمحتمل جدا هو لقاؤهم، وربما حتى الإستماع مباشرة إلى ترتيلهم وتجويدهم! سيكون الأمر خرافيا!

هنالك أيضا خزانة خشبية محيطة بثلاثة أسوار من أصل الست، يُخيلُ لي أنَّها مكتبة، بما أنها تحوز على كتبٌ عديدة مرفوفة في شتى المجالات لكُتَّابَ مفضلين لم يتسنَّ لي القراءة لهم من قبل، أحيانا لعدم توفر كتبهم في بلدي أنذاك، وإن توفرت فلعجزي عن شرائها بسبب غلاء أسعارها. أستاذٌ جامعي لا يملك المال الكافي لشراء الكتب، أمرٌ مضحك ومثير للشفقة في آن واحد أليس كذلك؟ أنا حتما سأمضي الكثير من الوقت في هاته الغرفة! سأقرؤ للجميع.

إنَّ أعجبَ من تلك الغرفة هو حائط غرفة المعيشة، أو بالأحرى الشاشة المعلقة على حائط غرفة المعيشة، أو لربما يكون الحائط بأكمله عبارة عن هاته الشاشة، لأنها تشغلُ كل مساحته. إنها بمثابة تلفازٍ ضخم عال الجودة، ككاميرا معلقة تبث كل أخبار العالم الأرضي التي تود الإطلاع عليها! هل تصدقون؟ يمكنني أن أتعرف على أحوال العالم كله وكأنَّ بي لم أغادره، إذن هذا ما كان يتحدث عنه أبي سابقا لما قال أنه كان يشاهدُ كل شيء يخصني؟ هذا يعني أنني أستطيع معرفة أحوال عائلتي وأصدقائي وطلبتي بشكل مباشر! يمكنني أن أشاهد أحداث حيواتهم كاملة أن أحضر حفل تخرج حفيدي محمود وحفل زفاف حفيدتي منى وحفل ختان الصغير يزن! سأستطيع أن أتفرج على مباريات كرة القدم للمواسم القادمة والأفلام السينيمائية الجديدة والوثائقيات والحفلات الموسيقية وكأنني لا أزال أحيى هنالك!

إنَّ بعضًا من الفضول يراودني لتوي، ما هذا الشريط الصغير؟ مُعرَّفٌ بجانبه على أنه "تاريخ الكون: من النشأة إلى النهاية". تاريخُ الكون كله في هذا الشريط الصغير؟! أصلا هل ستسعُ ذاكرته الأحداث التي وقعت كلها؟ انتظر لحظة، ماذا يقصدُ ب "النهاية"؟ إنها لم تُدرَكْ بعد وهو يزعمُ أنه يعرفها حق المعرفة. هل هذا يعني أنَّ النهاية معروفةٌ من الأساس حتى قبل أن ينتهي كل شيء هنالك؟ أ هذا هو معنى أنَّ "كل شيء بقدر"؟

أو مُقدَّرٌ له مسارهُ الكذائي؟ اذن إذا كُتِبَ لي الخلود هنا، سأشهد على نهاية العالم؟ كيف ستكون يا ترى؟ هل سأحزن على اندثاره أنذاك؟ أم أشعر بالسرور لإنتهاء كل تلك المعاناة والمآسي والحروب والمظالم؟ آه تذكرت، ألا يعني هذا أنني سأرى موتَ أحبائي؟! موت طلبتي وزملائي من الأساتذة؟ موت أولادي وزوجتي؟ وهل سأحزنُ على ذلك أم سأفرح لالتحاقهم بي؟ أنا أرى أنَّ عالمهم ذاك لا يُقارنُ على الإطلاق بهذا! أودهم حقا لو يلتحقون في أقرب فرصة.

دعنا من مسألة النهايات هاته ولنركز على ما وقع بينها وبين النشأة، هل هذا الشريطُ سيمكنني من معرفة التاريخ الحقيقي لكل حدث؟! لكل ظاهرة كونية؟ للإنفجار العظيم؟ لكل شخص؟ من كان محقا ومن كان مخطئا؟ هل صحيح أنَّ التاريخ يكتبه المنتصرون؟ أنه مزورٌ بالكامل؟ أم أنها مجرد مبالغة من المشككين في مصداقية المؤرخين؟ يزعمون فقط أنَّ الأخيرين قد خضعوا في تدوينهم إلى إملاءات حكوماتهم عليهم؟

ما الذي تعنيه تلك العبارة يا ترى؟ أقصدُ تلك العبارة المكتوبة على ذلك الجهاز الغريب؟ "محاكاة وحقائق"؟ ما هاته المحاكاة والحقائق؟ لا أعرفُ شيئا عن معنى المحاكاة هاته، لكن أ توجد حقائق مغايرة أم ماذا؟ ماهي الحقائق التي لن يكونَ ذاك الشريط الخاص بالتاريخ الكامل للعالم قادرا على عرضها؟ أنا لن أعثر على إجابة شافية ووافية إلا بسبيل واحد فقط: تشغيل هذا الجهاز.

ضغطتُ على زر التشغيل، وإذا بشاشة العرض تضيء مباشرة بما يشبه الكاتالوج، كاتالوج توجيهي لكيفية استعمال الجهاز. عرضت الشاشة مئات العناوين المتتابعة في أسطر: "منْ هو أقوى حيوان خُلقَ في كوكب الأرض؟"، "من هو أجمل إنسان في تاريخ كوكب الأرض؟"، "من هو أعظم ممثل سينيمائي مرَّ على تاريخ الأفلام السينيمائية الأرضية؟". أنا لازلتُ لم أفهم شيئا عن كيفية عمل هذا الجهاز، كما لم أفهم أيضا لِمَ كل عنوان هو خاص بكوكب الأرض فقط! هل لأنني كائن أرضي سابق؟ أظنه لزاما عليَّ أن أختار إحدى العناوين حتى تتضح آليةُ عمل هذا الجهاز الغامض. سأحاول اختيار عنوان مثير للإهتمام، مع أنَّ جميعها تبدو كذلك. ماذا عن هذا: "من هو أعظم لاعب كرة قدم في تاريخ كوكب الأرض؟"، يبدو شيقا، أليس كذلك؟

ها قد وقع اختياري عليه، هيا أيها الجهاز، قم بإستنارتي!

"إختيارٌ أولي رائع يا مصطفى! يبدو أنك من عشاق رياضة كرة القدم! لكن هل كنتَ من هواة المدرسة القديمة؟ مدرسةُ دي ستيفانو وبيلي وكرويف ومارادونا؟ أم المدرسة المعاصرة؟ مدرسة رونالدينيو ورونالدو نازاريو وزيدان وميسي؟ حسنا، إن أجرينا محاكاة حول اللاعب الأعظم في تاريخ كوكبكم، لوجدنا فارقا ضئيلا بين ليونيل ميسي ودييغو آرماندو مارادونا؛ إنَّ ميسي هو الذي حصل على شرف تسميته ب "G.O.A.T" كرة القدم.

إستندنا في قرارنا هذا إلى إعتبار إختلاف الظروف بين اللاعبين كمعيار رئيسي في وضع مقارنة عادلة بينهم. كاختلاف أزمنتهم إختلاف قوانين اللعبة بين كل عصر وآخر، وإختلاف ظروف لعبهم، وبنياتهم الجسدية، ونوعية خصومهم وجودتهم، واختلاف نوعية أحذيتهم الرياضية، وأرضيات ملاعبهم، وبيئاتهم التي نشؤوا بها، وقدراتهم الذهنية، وجودة اتخاذ القرارات لديهم، الفنية والمهنية والشخصية، وتأثيرهم الفردي المباشر على أداء فرقهم بشكل عام والعديد العديد من الظروف المتغيرة؛ لو وضعنا كل لاعبي كرة القدم الذين مروا على تاريخ الأرض في نفس الظروف المماثلة، لخرجنا بأنَّ ميسي هو اللاعب الأعظم في تاريخ اللعبة داخل الملعب لحسن قراءته لسير اللعب وجودة اتخاذه للقرارات الفنية والتكتيكية وسرعة تنفيذها، وخارج الملعب لحسن اختياره القرارات المهنية والشخصية والعاطفية؛ هذا الأمر الأخير هو الذي جعل جُلَّ اللاعبين الآخرين يفشلون في مسألة الإستمرارية والبقاء في ذروة مسيراتهم الكروية، سوء تسييرهم لحياتهم الشخصية خارج الملعب جعل أمر إستمراريتهم في مهب الريح. كما أنَّ الكثير من النقاد وعشاق الكرة قد تغاضوا عن مسألة الإستمرارية هاته لقد كانوا يقومون بتصنيف لاعب نجح في البروز أربع أو خمس مواسم فقط مع لاعب بقي في قمة مستواه لعشرين سنة متتالية.

مساواة الظروف بين اللاعبين كانت لترفعَ بعضهم وتهوي بالبعض الآخر. مثلا، لو لم يتعرض رونالدو نازاريو لإصابات الرباط الصليبي المتكررة وقلل من خرجاته الليلية في شبابه لنافسَ بشكل جدي على أفضل لاعب بعد ميسي ومارادونا، كذلك لو فعل الأخير، وابتعد عن الطريق الذي اختاره لنفسه، لربما أزاح ميسي عن عرشه. فلنتكلم عن نايمار، موهبة ربانية نادرة الحدوث، كان بإمكانه مراوغة فريق الخصم بأكمله ثم التسجيل، تقنياته رهيبة لكن ذهنيته وسلوكه لم يكونا كذلك. ماذا عن دافيد بيكهام؟ لو لم يكنْ حسنَ المظهر وإنجليزيا ثريا لما حصل على كل ذلك الزخم والإطراء في مسيرته، هو لاعب عادي للغاية. كذلك الأمر عن نغولو كانتي، لو لم يكن الأمر متعلقا ببشرته السوداء وشخصيته الخجولة البعيدة عن الظهور الإعلامي وقلة استمراريته لغدى أكملَ متوسط ميدان على الإطلاق.

ها قد قمت بإجابتك على سؤالك، هل تود اختيار سؤال آخر؟ ماذا عن "أعظم عالم فيزياء في كوكب الأرض"؟ تعلم، بما أنك أستاذ علوم فيزيائية؟"

كم هو ثرثارٌ هذا الجهاز!! كيف يجرؤ على القول بأنَّ ميسي أعظم من مارادونا!؟ وأنَّ بشرة كانتي هي مَن منعته أن يصبح أعظم متوسط ميدان في التاريخ! أعظم حتى من تشافي؟ ميسي أعظم من مارادونا؟ هل هو منتش أم ماذا؟ وهل شاهدَ هذا الجهاز

هدف مارادونا ضد انجلترا في ربع نهائي كأس العالم بالمكسيك؟ هل يستطيع ميسيهِ ذاك فعل ذلك؟ والأعجبُ أنه بعد كل هاته المحاكاة الظالمة والمقارنة الغير عادلة المستندة لمعاييره الغير مفهومة، يود مني أنْ أطلب منه إجراء محاكاة لمعرفة أعظم الفيزيائيين؟ إنه يحلم. بقي فقط أن يقول أنَّ بلانك أعظم من آينشتاين! سأقوم بإطفاءِ هذا الثرثار، ربما إلى الأبد! لن أشعلهُ مجددا، ولتذهب حقائقُه المزعومة إلى الجحيم.

سأحاول الإطمئنان على أحوال زوجتي جميلة بينما أستلقي على تلك الأريكة الوثيرة وأرى الذي تفعله حاليا، ربما تنجح في نزع شعور الإستياء هذا مني. هاهي زوجتي الحبيبة مستلقية على الأريكة مثلي تماما وهي تشاهد مسلسلا كعادتها. لكن لِمَ تبدو لي أنها أكبرُ عمرا؟! أنا حتما لم أتركها على هاته الحال! ويْ كأنها أكبر بعشر سنوات أو أكثر! ما الذي يحدث؟ أعلم أنَّ لا زمنَ هنا ولكن لِمَ هو متقدمٌّ كثيرا عما هو عليه هنالك؟! أنا قد دخلت الجنة لتوي، ولَمْ يكن موتي مذ هاته المدة السحيقة كلها حتى يتركَ هذا الأثرَ كله عليها، على الأقل ليس لعشرِ سنوات كاملة!

ماذا عن بناتي وأولادي؟ كم أصبحت أعمارهم؟ هل كبروا هم أيضا!؟ رباه! هاهي سارة ابنتي! إنَّ ملامحها لبثت على الحال نفسه لم يتغير الشيء الكثير حولها، ربما اكتساها القليل من الشيب فقط. مَنْ هاته الفتاة الصغيرة التي تُلاعبها؟ وتلك الشابة الجالسة

بجانبها؟ تشبه حفيدتي منى بعض الشيء، أرجوك لا تخبرني أنَّ هاته "الشابة" هي منى؟! وأنَّ هاته الفتاة الصغيرة هي ابنتها! إنها هي! تشبهها كثيرا! هل هذا يعني أنَّ سارة قد أصبحت جدَّةً!! ولكنها لا تبدو مُسنَّةً إلى ذلك الحد!! أصلا متى أقيم زفاف منى؟ لقد تركتها مراهقةً لأجدها الآن شابة يافعة وزوجة بل ووالدة!! بحق الإله ما الذي يحصل هنا! إنَّ تلك المدة القصيرة المستغرقة بين موتي ودخولي الجنة تُعادلُ ما يقارب العشر سنين في ذلك العالم الأرضي! ألا يعني هذا أنَّ جميع من أعرفهم لن يستغرقهم الوقت الكثير كي يلتحقوا بي؟ ماذا لو أنهم قد فعلوا مسبقا؟ هل توفي أشخاص أعرفهم خلال هاته المدة؟ طبيعيٌ أن يموت الكثيرون منهم في فترة عشر سنوات. هل هم يُحاسبون آنيا؟ وكأنَّ بإمكان أي أحد منهم أن يُقبلَ عليَّ في أية لحظة! إذن أعتقد أنَّ جميلة لن تطيلَ المكوث هنالك حتى تنضم إلي، غريب هذا الأمر. مع أنني أشتاق إلى رفقتها كثيرا، لكنني لا أودُّها أن تختبر أيَّ ألمٍ أثناء وفاتها.

ماذا عن أحمد؟ ما الذي يفعله؟ إنه نائم. لقد كبرَ ولدي كثيرا أصبح رجلا شارفًا على الكهولة. يبدو أنه يحظى بإحدى الكوابيس هل بإمكاني أن أزوره في حلمه لعلِّيَ أخففه عنه؟ نعم أنا أستطيع! إنَّ كل ما تريدهُ سيحدث آنيا هنا إن أنتَ آمنتَ بإمكانية حدوثه. إنَّ ما يشبه نافذةَ قد أطلَّتْ على حلمه، هي تتيحُ ليَ الآن الولوج

إليه، لكني لا أظنها تُفتَحُ دوما، كما أنَّ عدد الزيارات قد يكون محدودا بفترات زمنية معينة، وإلا لكان والدي ووالدتي وأخواي يزورونني آنذاك في كل مرة كنتُ أحلمُ فيها. سأحاول أن أكون أكثر اختصارا ووضوحا في زيارتي، كي أتركَ ما يكفي للمرات القادمة.

-أحمد بني، هل أنت بخير؟

-أبي! أنا بخير، ماذا عنك؟ هل تُحظى بوقت طيب أم عصيب؟ لِمَ لم تزرنا من قبلُ يا أبتي، إنا نشتاق إليك كثيرا.

بدأت النافذة بالانغلاق تدريجيا، لم يعد هنالك متسع لإجراء محادثة كاملة.

وددتُ لو أنني استطعتُ الكلام، لكنني لم أقدر على ذلك اكتفيتُ فقط بابتسامة حاولتُ بها طمأنته، أردتُ أن أقول له "وأنا اشتقت إليكم أكثر، أنا في أفضل حالٍ يا بني، أنا أشعر بالأسف على سخريتي منك، أعتذر لك. أنا أحبك يا بني، قل للجميع أنني أحبهم وأنني أشاهدهم دوما من فوق، إلى اللقاء!"، إلا أنَّ النافذة لم تسعفني أكثر لمجرد الإبتسام.

شعرت بالحزن لعدم مقدرتي على التحدث إلى أحمد، لكن غمرني بعض الارتياح على الأقل لقدرتي على زيارته. وددتُ لو أنني أبلغته أسفي، علّهُ يخفف عنه بعض اللؤم الذي يشعر به تجاهي دوما، ويخفف عني النغص الذي يزعجني تجاهه. لم تكن لي يوما

الشجاعة الكافية أنذاك كي أُعرب عن أسفي ذاك، لم أكن مستعدا لكي أظهر بثوب المخطئ الذي أساء توجيه مستقبل ابنه. يا ريتني فعلتُ وليذهب الثوب ومظهره إلى الجحيم، كانت سعادةُ ابني وشغفه أهمَّ من أيّ دخلٍ أو ربح، كان يُجدَرُ بابتسامته أن تكون أهمَّ لديَّ من كسبه وضحكتُه أهمَّ من ماله عندي.

أذكر جيدا أنه كان طفلا ذكيا اجتماعيا مزاحا عاشقا للفنون يشبهني يعني. لكن فورَ أن أجبرتُه على اتخاذ المحاسبة دربا لحياته المهنية حتى أضحى شخصا منعزلا آليا لا يهوى المناسبات والأنشطة الاجتماعية، شخصٌ انطفأت جذوته يرفض حتى المكوث مع عائلته حول طاولة الطعام. ولِكُثرِ ما نهرته عن ذلك لكن دون جدوى. حتى لم أعد أكترث فعلا سوى بصحته الجسدية، إن كانت جيدة فحسب. أشعر بالخجل في كل مرة أتذكر فيها هذا، سأزوره في أحلامه في كل مرة تسنح فيها الفرصة كي أطلبَ الصفح عني حتى يفعل.

خرجتُ من المنزل أتمشى في الباحة كي أنسى قليلا شعور الحزن، لم أجد والداي في فنائهم ولا إخوتي، ربما قد دخلوا منازلهم، سأزورهم لاحقا. على ذكر شعور الحزن، ألم يكن يجدرُ بي ألا أستطيع أن أكون حزينا؟ أعني بما أنني قد مررتُ بعملية التطهير من كافة المشاعر السلبية، فالغالب أنْ لا أكون قادرا على الحزن مثلما لا أكون قادرا على الغضب أو الحقد أو الكراهية هل

لربما لأنَّ الحزن لا يعتبرُ شعورا سلبيا بالفعل؟ إنَّ حالة الحزن التي تكتنف البشري حين فقدان شخص عزيز أو العجز عن تغيير مصير مؤلم هي شعور يعبر عن نُبله وصدق أحاسيسه ويقظة ضميره؛ هي إحدى تلك العواطف التي تجعل من البشري إنسانا، مثلها مثل التعاطف والشفقة والإيثار؛ إنعدام الشعور بها هو ما يُذهِبُ عن البشري إنسانيته ويجعله قاسيا. لكن بقاءُ هذا الشعور هنا في الجنة مرهون بألا يتحول من جانبه الإيجابي إلى جانبه السلبي؛ الجانب الذي يجعل من المرء مدمنا على الإكتئاب والحسرة والعجز. إنَّ الحزن الذي شعرتُ به لتوي كان عن رغبة جارفة في داخلي لجبر خاطر ابني، وهو ما تم اعتبارهُ كشعور نبيل بدلا عن اعتباره كشعور سلبي؛ لهذا كان بإستطاعتي أن أحزن.

بعد أن أجلتُ النظر في أرجاء الباحة، جلستُ على مقعدٍ صغير بجانب شجرة غريبة، تكاد تنتمي إلى الرصيف أكثر من الباحة. هي شجرةٌ جميلةُ المنظر، لكنني لم أفهم ماهيتها تقنيا لأنَّ بها أنواعا متنوعة من الثمار المتدلية من مختلف أغصانها والعجيبُ أنها أنواع الثمار التي أحببتها دوما، كأنها مصممة خصيصا من أجلي أرى بها تفاحا أخضرا وعنبا أسوداً وموزًا أصفرا ورمانا قرمزيا وخوخا ورديا وبرتقالا. نهضتُ عن المقعد ورفعتُ يدي كي ألقطَ ما يمكنُ لي لقطُهُ من الشجرة، وبينما أنا أُقلِّبُ بين أغصانها كي لا تخفَى عني أيُّ ثمارٍ أخرى وأختار إحداها حتى أتذوقها، فإذا بي

أُفاجأُ بصوتٍ غريب يناديني، أدرتُ رأسي حتى أعي من المتحدث لكني لم أجد أحدا.

-أنا هنا يا مصطفى، انظر إلى أسفلك.

غريب، إنه قط، لكنه مألوف لدي بعض الشيء، أشعر أنني رأيته من قبل، أنني أعرفه جيدا... هل هو طوماس؟! طوماس! إنه طوماس القط الخاص بي! القط الذي امتلكته مذ بداية فترة طفولتي! لقد أمضينا خمس عشر سنة كاملة مع بعضنا البعض! وهو يتكلم؟! ويبتسم؟

-طوماس؟! لا أصدقُّ عيناي! ما الذي تفعله هنا؟ أقصد، ما الذي جاء بك؟ أقصد، أنت تتكلم؟! قلتُ وأفكارٌ مبعثرة عديدة تختلطُ في رأسي. حسنا، في الظاهر لم تبدُ ردة فعلي سعيدة برؤيته، لكنَّ أحاسيسي كانت مناقضة تماما لما بدر مني.

-أ هكذا هو ترحيبك يا مصطفى؟ أرى أنه غير مرغوب هو تواجدي في الأرجاء وأنا الذي انتظرتُ مجيئك دوما! أراني راحلا إذن!

-لا! اعذرني، أرجوك فأنا لم أقصد ذلك! إنني مستغربٌ الذي أراه وبطيء الاستيعاب قليلا. تعال إلى هنا أيها المشاغب، لم أتصور يوما أنه يمكنني لقاؤك مجددا، كما أنك تتكلم وأنتَ مبتسم! إنْ لم أُبْهَتْ برؤية قط يتكلم مبتسما فمتى سأفعل إذن؟

-لقد كنا دوما نتكلم، أنتَ فقط من لم تكن له القدرة على فهمي، حسنا ونوعكم عامة. لقد انتظرتك مذ أن قُمتَ بدفني وانتقلتُ إلى هنا، كنتُ أخشى ما أخشاه ألا يكون بإمكانك المجيء مع أنني كنت أثق أنك ستفعل، لأنني عهدتُك ذو قلب طيب. لقد كنت أشاهدك دائما، رُغم أنني فارقت الحياة في فترة مراهقتك إلا أنني قد شاهدتُ كل شيء، شاهدتُ زواجك وولادة أبنائك وشغفك حين كنت تقوم بالتدريس. لكن الذي أثر فيَ فعلا هو عدم تبنيك لأي قط أو حيوان آخر، وفاؤك هذا هو ما جعلني أقرر انتظار مجيئك يا صديقي.

-أنتَ لربما حين فارقت الحياة وكنتَ مشغولا في سلوكِ الطريق إلى هنا، لَمْ تلمح كمَّ الكآبة التي أُصِبْتُ بها جراء فقدانك. أنا لم أقوَ على الأكل أو النوم أو فعل أي شيء، وقررتُ أنذاك أن لا أحظى بأي حيوان آخر، على الأقل كتخليدٍ لذكراك، وأيضا لعدم استعدادي لإختبار شعور الفقدان مرة أخرى.

-آسفٌ على جعلك تمر بمثل ذاك الشعور. قل لي، هل تذكر حين كنا نشاهدُ طوم وجيري معا بينما كنت تُربتُ على فروة رأسي حتى أشعر بالتخدير وأغفو فجأة؟

-لم ولن أنسَ ذلك، لقد منحتُك اسمك أصلا تيمنا بِطوم كونها عزيزة علي تلك الذكريات.

-هي كذلك عليَّ أيضا. تعال معي، أودُّ أنْ أعرِّفك على أصدقاء أعزاء لي، ولا تسألني عمن يكونون، أريدها أن تكون مفاجأة، أنا جد متحمس لرؤية ملامح وجهك حين تلتقيهم!

باشرنا المسير أنا وطوماس، استفسرتهُ فيها عن إحدى الأشياء التي أثارت اهتمامي دائما بخصوص القطط، ما معنى كلمة "مياو" التي كان يتفوه بها هو وأقرانه؟! إلا أنَّه أبدى حيرة مستغربة، أقرَّ فيها أنهم هم أنفسهم أيضا كانوا يسمعوننا نتفوه بنفس الكلمة! لقد كنا نتكلم بلغاتنا الخاصة ولكنها كانت تبدو في نظرهم مجرد كلمة لا معنى لها، لقد كانوا يسمعوننا نلفظ "مياو" أيضا! هل هذا ينطبق على جميع لغات الحيوان؟ هل هذا ما كانت تعنيه الآية القرآنية القائلة "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم"؟! لهم مثلنا تواصلهم وأحاسيسهم ولغاتهم وعالمهم ومجتمعهم، وأنَّ كوننا لا نفقه ما يقولون لا يعني بالضرورة أنهم لا يتواصلون ولا يشتكون ولا يتحادثون ولا يشعرون.

وصلنا إلى مكان يشبه المسرح، أو فلنقل قاعة سينيما. هل حنينُ طوماس لمشاهدة طوم وجيري هو ما جاء بنا إلى هنا؟ ليس الأمر أنني لا أريد ذلك ولكن كان بإمكاننا الدخول إلى المنزل ومشاهدته. فالشاشة هناك تعيدُ عرض كل ما أردتَ مشاهدته مرة أخرى. كذلك كان هنالك الكثير من الأشرطة، وقد لمحتُ إحداها، كان خاصا بطوم وجيري.

أين هم أصدقاؤه الذين تحدث عنهم؟ أنا لن أتسرع ولنرَ إلى ما يرمي إليه هذا المشاغب. دخلنا إلى الداخل ووجدتُ أنَّ المكان قاعة سينيما حقا، لكن شاشة العرض فيها كانت مطفأة، إذن لن نشاهد أي شيء.

-لنتفضل داخل هاته الغرفة، أغمض عيناك ولتعدني أنك لن تختلس النظر، ستفتحهما فقط حين أقول لك أن تفعل.

-حسنا، أنا أعدك. (اتضح أنَّ للقطط سطوة لم نعرف عنها شيئا)

-إنّ هذا صديقي الذي أخبرتكما أنه يحبكم، وددتُ أن أعرفه عليكما، مصطفى يمكنك فتح عينيك الآن.

أنا في الحقيقة لم أعد قادرا على استيعاب هاته الأعاجيب التي تحدث، لكني بدأت أعتاد على وجودها بعض الشيء. إنَّ اللذان أمامي هما طوم وجيري نفسهما! نعم أنا لستُ أهذي، لسنا في

موضعِ مزاح أو هذيان، إنَّ هذا هو طوم بفروته الرمادية ومقدمته البيضاء وجيري بلونيه البني الفاتح والغامق. لكن من منظور "فيزيائي" هما ليسا كطوماس، أي لا يملكان شحما ولحما وعظما بل لا يزالان بكينونتهما الكرتونية، وهما يقفان الآن أمامي!

-هل أكل أحدُهما لسانك؟ قال جيري مخاطبا إياي ومشيرا إلى القطين الآخرَيْن.

-دعنا نمنحه بعض الوقت كي يستوعب قليلا. إنَّ شخصيتان كرتونيتان كانت كلُّ معرفته بهما تقتصر على مشاهدتهما في التلفاز، بصدد التحدث إليه وجها لوجه. هل أنتَ مدركٌ مدى صعوبة الأمر؟ إنه أشبه بالخرافة. لقد حدث نفس الشيء معنا حين التقينا جوزيف ووليام، هل تذكر يا جيري؟

-من هما جوزيف ووليام؟ أ تقصد جوزيف باربيرا ووليام هانا؟! المخرجان اللذان قاما بخلقكما؟

خرج شخصان يهرولان بنشاطٍ مفرط من الغرفة المجاورة.

-بشحمهما ولحمهما! قال جوزيف بنبرة بهيجة. حسنا، لا تقلق، لقد أصابنا أيضا مثل الذي يصيبك لتوك، أقصد حين التقينا بطوم وجيري. ولكننا اعتدنا الأمر فورا، خصوصا حين باشرنا الإلتقاء بشخصيات أخرى. لقد التقينا الكثير! (وبدأ يعدُّ بأصابع يديه) التقينا باغز باني، ميكي ماوس، وودي نقار الخشب

الفهد الوردي.. من أيضا؟ ذكرني يا ويليام... لا علينا، إلخ القائمة، قائمة طويلة بحق. لم يقتصر الأمر على الشخصيات الكرتونية فقط، لقد التقينا أيضا والت ديزني، ووارنر بروس والكثير الكثير من الموسيقيين الذين استخدمنا موسيقاهم في إنتاجاتنا. بعضهم كان فرحا بذلك لكن آخرون غضبوا، لأننا استخدمناها دون استئذانهم. حسنا، لم يكن الأمر ممكنا أن نأخذ بإذن تشايكوفسكي، الرجل كان ميتا أنذاك! أما فرانز فلمْ يمانع ذلك، لقد سُرَّ إعجابا باستخدامنا لإحدى مقطوعاته.

-فرانز؟ أتقصد فرانز ليست؟! تعني أنكم التقيتم فرانز ليست الموسيقار المجري؟!

-أجل، إنه من أشدِّ معجبينا وداعمينا. لقد وصفَ استخدامنا لل "الافتتان المجري رقم 2" في حلقة "كونشيرتو القط" بالحركة العبقرية، شخص رائع هو ذاك الفرانز.

بدأ ذهني يشرد بعيدا حينما كان جوزيف يستكمل ذكر الأشخاص الذين التقوهم، رُغم أنه صرَّح قبل قليل بأنَّ القائمة طويلة قائلا "إلخ القائمة"، كأنَّ في فعله ذلك بعضٌ من التباهي والتفاخر بالإلتقاء بشخصيات عظيمة هو نفسه لم يحلم يوما بإمكانية حدوث ذلك. أنا نفسي لم أعد قادرا على الإستماع إلى أي كلمة أخرى ينبسُ بها، لقد ذهبَ بالي إلى مكان آخر. ذِكرُ إسم

فرانز ليست جعلني أستحضرُ في أول مرة لمحتُ فيها زوجتي جميلة كنتُ لحظتها أستمع إلى مقطوعته "حلم الحب" وهي تهمُّ بالخروج من إحدى مدرَّجات كلية الآداب. كانت تلك المقطوعة سببا ثانويا في وقوعي في هيامها لحظتها، بعد جمالها الآسر طبعا. كانت "حلم الحب" تجعلني أتنهد مثلما تفعل كل متيمة بحبيبها فور استحضار ذكراه في مخيلتها.

-إنني جد سعيد بلقائكم أيها الرفاق، لكن هل يمكنكم ترتيبُ لقاء لي مع فرانز؟ أعني بما أنه صديقكم فسيكون ذلك محتملا أليس كذلك؟ إنَّ اهتماماتي كانت دوما منصبة على الموسيقى أكثر من أي شيء آخر، أكثر من الفيزياء، وربما حتى كرة القدم نفسها.

-طبعا، في الحقيقة أنتَ لن تكون بحاجة إلينا من أجل ذلك هو شخص رائع وسيسعد برؤيتك دون أي موعد مسبق. أظنك ستجده في المسرح، إنّه بجانب هاته القاعة. يوجد ممر خلفي سيمكنك من الذهاب إلى هنالك بشكل أسرع. وأحيطك علما أنني لم أستهوي كرة القدم يوما، حاولتُ جاهدا أن أفعل ولكني لم أستطع، رياضة عنيفة بجد! لا أدري ما الذي جذبكم فيها بذاك الشكل!؟ قال ويليام مستنكرا.

شكرتُ الجميع وضربتُ لهم موعدا للقاءٍ آخر ثم استأذنتُ طوماس كي أذهبَ بمفردي. بلغتُ قاعة المسرح كما أخبرني ويليام بالضبط بعد أنْ أوصلني الممر الخلفي إلى مدخلها الواقع بوسط جانبها الأيمن. ولحسن حظي فإني وصلتُ في توقيت مثالي جدا لأنَّ أحدًا ما على وشك أن يبدأ العزف على بيانو، لو تعلمون فقط كم استميتيتُ لحضور حفل كونشيرتو حي لعازف بيانو.

باشرتُ البحث عن مقعدٍ شاغر في الأعلى بعد أن تسنَّى ليَ رؤية مقاعد النصف السفلي ممتلئة عن آخرها، أمَّا مقاعد النصف العلوي فكان بعضها فارغا. مشيت قليلا تجاهها إلى أن عثرتُ على مقعدٍ بدى مناسبا. أخذتُ مكاني ثم أشخصتُ النظر جيدا في هيئة العازف لعليَّ أعرفه لكنني فشلتُ في ذلك، بما أنَّ ظهرهُ كان مواجها للجمهور. لربما سأتمكن من التعرف عليه إن أنا تعرَّفت على المقطوعة التي سيعزفها، سكوتٌ من فضلكم.

أرهفتُ السمع فإذا بي أجد النوتات الأولى جد مألوفةً لي، إنني أعرف هذا اللحن عن ظهر قلب! إنه لفريدريك تشوبان! ولكن لم يسبق لي وأن تذوقته بمثل عذوبته هذه! أرجوك لا تقل أنَّ ذاك الذي يعزف هو فريدريك نفسه؟ أنا لن أستطيع الجزم بصحة هذا الزعم حتى ينتهي الكونشيرتو كلية ويستدير العازف نحونا لذا عليَّ أن أستمع وأستمتع قدر الإمكان. إلهي كم عذبٌ هو عزفه وكم هي آسرةٌ ألحانه. بعد المزيد من النوتات الأخرى المتتابعة

استطعتُ وبشكل قاطع أن أجزم أنَّ الذي يعزف هو تشوبان حتى وإن لم أرَ وجهه، لأنَّ طريقة عزفه شيء مغاير تماما، إنَّ ايقاعهُ فريد من نوعه. لقد استمعتُ من قبل إلى هاته المقطوعة ولكنَّ عزفها بهاته الطريقة تحديدا لن يكون متاحا إلا من طرف مؤلفها الأصلي ولو تمرَّس عليها الآخرون وتمرَّسُوا. إنه يملك "الإيقاع" الذي لن يملكه أي أحد غيره، هو يملِكُ الشيء الذي أبدعته مخيلته وأنامله.

تماما مثلما قد تقرأ لكاتب ما بلغته الأم، فإنَّ القراءة له بلغة أخرى قد تُذهِبُ المعنى والأحاسيس كلية، وسيتلاشى الجمال الموجود بين كلماته وعباراته وسطوره، حتى ولم تكن الترجمة حرفية. الأمر يشبه الذي كان يحدُثُ مع مؤلفات لودوفيكو ايناودي الموسيقار الايطالي، لقد كانت صفائح موسيقاه الحائزة على نوتات مقطوعاته منتشرة كالنار في الهشيم في ذاك العالم، ولكنَّ جميع من حاول العزف مثله فشلَ فشلا ذريعا، لأنه وحده من كان يملكُ الإيقاع المناسب لها وتوقيت ومقدار "الضغط" الملائم لأصابعه على مفاتيح لوحة البيانو، كما كان يملك "كمية" الصمت المناسبة بين كل نوتة وأخرى، للأسف لم يُوفَّقْ الآخرون في احترام كل ما سبق ذكره.

لم أشعر بالزمن إطلاقا وهو يمضي حتى سمعتُ تصفيقات الجمهور الحارة وهي تهنئ العازف على الكونشيرتو الرائع الذي قدمه. لقد كنت محقا، إنَّ الذي كان يعزف هو فريدريك نفسه. إذ بُعَيد أن أنهى عزفه، واستدار ليلقي التحية على جمهوره حتى تعرفتُ على ملامحه. ولغرابة الأمر، أتيت كي ألتقيَ بفرانز فوجدتُ فريدريك. أنا سأنتظر ريثما يغادرُ الجمهور وأستغل الفرصة كي أعربَ له عن امتناني الكبير جدا لأعماله الفنية التي جعلت عالمنا السابق أفضل، وحتما هي تجعل الجنة الآن مكانا أجمل بكثير.

همَّ الجمهور بالمغادرة إلا بعضٌ منه من الصف الأول الذين أطالوا المكوث والتصفيق، من يكونون يا ترى؟ هل هم عائلة فريدريك؟ أم مجرد معجبين مثلي؟ عليَّ النزول الآن إلى الأسفل كي ألحقَ به قبل أن يغادر هو أيضا. لكن صدمتي بالذي رأيتُ كانت عظيمة بشكل رهيب، لأنَّ أولئك الجالسين في مقاعد الصف الأول كانوا أساطير الموسيقى الكلاسيكية عبر التاريخ!! إنَّ دهشتي لا توصف! دعوني فقط أسترجع بعض القوة في رُكبتَيْ المرتجفتين قبل أن تخونانني، عليَّ إلتقاط أنفاسي حتى أذكرهم جميعا دون نسيان أي أحد منهم.

إلهي الأعظم! إنَّ أول الذي وقعت عينايَ عليه كان لودفيغ فان بيتهوفن، ثم تلاهُ يوهان سيباستيان باخ، والذي بعدهما آماديوس وولفغانغ موزارت، وكلود ديبوسي وشوبرت وفاغنر وهاندل

وهايدن وبراهمز وشومان وزوجته كلارا وفيفالدي وآلبينوني وراشمانينوف وتشايكوفسكي ومندلسون وشتراوس وساتي ويتوسط الجميع فرانز ليست! حاولتُ قدر الإمكان تمالكَ نفسي واسترجاع توازني المختل، لكن الذين هم أمامي الآن يعتبرون تاريخ الموسيقى الكلاسيكية! أنا أقف حرفيا أمام الموسيقى الكلاسيكية! استجمعتُ بعض القوى بُغية التعريف بنفسي وإلقاء خطاب عليهم، ربما يكون خطاب شكر قصير جدا على مسامعهم، هذا إن استطعتُ النبس بأي كلمة.

-أيتها السيدة الجميلة كلارا، أيها السادة الأساطير أستسمحكم عذرا. دعوني أعرف بنفسي، أنا مصطفى معيوب شخص معجب جدا بكم وبأعمالكم، شخص أحبكم ويحبكم وسيحبكم دوما. لي الشرف العظيم أن أنحني أمامكم تعبيرا مني على خالص المحبة والاحترام تقديرا لجلال ما منحتم العالم من جمال، وفن وإبداع. كما أشعر بالامتنان الشخصي الكبير لكم على مساعدتكم لي في الحياة وعليها، خصوصا في تلك اللحظات العصيبة التي صادفتني. لقد كانت أعمالكم بمثابة دواءٍ مجاني للجراح وخيبات الأمل التي اضطررت للتعامل معها.

-انهض يا رجل، إنك تجعلُ منا عاطفيين بكلامك هذا.

قال لودفيغ وهو يرفعني عن الأرضية بينما كان يصافحني؛ إنَّ هاتين اليدين هما اللتان ألَّفتا "من أجل إليز". لبثتُ على انحنائي هنيهة من فرط ذهولي للمسي يديْ بيتهوفن، ثم استأنفتُ مصافحة الباقين، لكنَّ الذي حدث أنَّ أعمالهم ظلت تتجلى في ذهني بدلا عن وجوههم المتوارية عن نظري. إنَّ هذه "هواء" باخ وهاته "لاكريموزا" من ترنيمة موزارت، و"ضوء القمر" لكلود وسيريناداة شوبرت، و"نشيد ألمانيا أو النمسا القديم" المستوحى من هايدن، وفصول فيفالدي الأربع. لقد صافحت كل هؤلاء دون حتى المقدرة على رد تحياتهم فضلا على النبس بأي كلمة، كان ذلك لنشوتي بما كنتُ بصدده، حتى وصلتُ إلى طوماسو آلبينوني وتوقفت من فوري بغية طرح سؤال.

-أخبرني يا سيد آلبينوني، ما الأمر الجلل الذي حدث في حياتك حتى ألفت "آداجيو"؟ ما القصة وراءها؟ إن حزنها نفَّاذ بالمرة يمكنُها أن تجعلَ أسعد السعداء حزينًا على حين غرة.

-يمكنك أن تسأل ريمو جيازوتو، ما أعلمه منه هو أنه لربما يكون استلهمها مِنْ إحدى مقطوعاتي، ولكنَّ الحقيقة الكاملة أنه هو الذي قام بتأليفها. أما عن الذي أحسنَ أداءها كما يجب أن تؤدَّى حقا فإنه عازف التشيلو الخاص بعصركم شتيفان هاوزر لقد أذاب قلوبنا يا رجل. تصور أننا جميعا بدون استثناء نتمنى

أن يلتحق بنا في أسرع وقت فقط لكي نشكره على تلك المشاعر الفياضة التي استنزفته أثناء العزف! إنها تلك هي الموسيقى وإلا فلا! لقد خُلِقَتْ لكي تُعزَف بذلك الشكل. أنا عن نفسي تمنيت بشدة أن أكون الشخص الذي ألفها ولكن لا يا صديقي، إنه ليس أنا، إنها تخص ريمو، مع أنني أشعر بالفخر أنه استلهمها مني.

بُعيْدَ أن أنهيتُ مصافحة الجميع، جاء فريدريك ناحيتي بخطى ثابتة واستأذن الآخرين للمغادرة، آخذًا ذراعينا أنا وصديقه فرانز، وطالبا منا التمشي لبعض الوقت خارجا بغية التحدث إليَّ على وجه الخصوص. أما عني أنا فقد نجحت في الامتناع أخيرا عن الاندهاش وتقبلتُ الواقع، إنَّ يده هاته التي تمسكني هي خالقة "مشية الجنازة"، و صديقه المفضل هذا الذي بجانبنا هو مبدع "حلم الحب". وإنني في الحقيقة في حلمٍ لا أود الاستيقاظ منه أبدا لأنني أشعر بالإلهام والعظمة والإبداع تسري في دواخلي. هل يا ترى سيكون بإمكاني الآن العزف على البيانو؟ أعني بما أنني قمتُ بلمسِ كل تلك الأيادي المقدسة؟ قد تنتقل البعض من مواهبهم إلي، من يدري؟ ربما يحدث ذلك، لكن ما بالُ فريدريك يريدني؟

-سيد شوبان، تهانيَ، لقد كان حفلا رائعا للغاية، لكن اعذرني إن كنت أتساءل لِم وددت أن تحادثني.

-أخبرني، ما الذي تعرفُه عن يوكي كوراموتو وسفيان بامارت؟ بما أنَّك تهوى مقطوعات البيانو وأنك معاصرٌ لهما فحتما أنك كنت على إطلاع بأعمالهما!

-هل تعرف يوكي يا سيد شوبان؟! اعذرني على هذا السؤال الغبي، فرضيتي كانت دوما أنَّ كلَّ الأساطير هنا ستبحث عن مثيلها من الأبعاد والفترات الزمنية الأخرى. سألتني عن يوكي، ماذا عنه؟

-كيف وجدته؟

- أرى أسلوبَه والخاص بك متشابهين جدا، للأسف أعماله لم تأخذ التقدير الذي تستحقه، هل سمعتَ ارتجاله في مقطوعة " فالز رومانسي"؟ لقد كان مُهدًى إليك.

-تخيل أنَّ باخ بعظمته لم يلقَ الرواج أثناء حياته، وقد سنحت له الفرصة أن يرى التقدير الذي حصل عليه من هذا المكان، من فوق. لقد كان يشاهدُ كل الحفلات التي كانت تعزف موسيقاه وهو يذرف دمعًا، كان يظن أنَّ عبقريته لن يتم تقديرها أبدا وأنَّ برحيله فهو قد وُضِعَ في طي النسيان. أعتقدُ أنَ نفس الأمر سيحدث ليوكي، سيتم تقديره لاحقا فورَ أن يغادر عالمه

الحالي، ليس ذنبه أنه سابقٌ لعصره يا مصطفى! إنَّ الرجل عبقري! عبقرية خالصة! ماذا عن الآخر؟ سفيان؟

- سفيان فريدٌ من نوعه، سيُصنَّفُ على أنه أسطورة أيضا ارتجالاته خرافية، إنه يبدع ألحانا عظيمة لحظيا ودون أي تحضير منه! إنه ينفث عواطفه الحارة في كل نوتة يقوم بخلقها أنتَ والسيد ليست أدرى مني بهذا الأمر.

-إننا جدُّ معجبين بالأساليب الموسيقية الحديثة، أتكلم عن نفسي، أنا تقريبا مدمنٌ على هذان الإثنان بالتحديد، ربما لو التحقا بنا قريبا، سنقوم بعمل فني مشترك، كونشيرتو أو ألبوم يحتوي على مقطوعاتنا الثنائية أو الثلاثية. كلود يحبُّ يان تييرسن كثيرا، ربما لأنهما من نفس البلد. شوبرت يعشق ييروما، أما لودفيغ فيفضل لودوفيكو ايناودي، ربما لتشابه اسميهما، هو يقول أنه يفضله لأنه مثلهُ يصعُبُ تصنيفه. موزرات معجبٌ بتيغران هاماسيان لأنَّ أسلوبه يذكره بمقطوعته "المشية التركية".

-لكن لِمَ أردتَ رأيي أنا بالذات؟ لقد كان في تلك القاعة أساطيرُ يفقهون الموسيقى أفضل بكثير مما أفعلُ أنا، رُغم أنه لا يجدر بي وضع نفسي في مقارنة معهم أصلا.

-في الحقيقة لقد تناقشنا كثيرا حول مثل هاته النقاط التي طرحتها عليك. لقد أبديتُ اهتمامي بكَ بالأساس لأنك لستَ من الوسط الموسيقي، أعني أنك لستَ موسيقيا محترفا، لكنني رأيتُ في ذائقتك الفنية أمرا مثيرا للإهتمام، أنتَ تملك أذنًا موسيقية ذهبية، إنها مذهلة. لقد أخطأتَ في اختيار مهنتك يا صاح! قل لي إنَّ سفيان سيعزف غدا بتوقيت ذلك العالم، هل تود أن تحضر كي نستمع إليه سوية؟ الجميع سيحضر.

-أجل أجل يا سيد تشوبان...

لقد كان فريدريك يتحدث إلي ولكنه فقدني في لحظة تشتت فيها انتباهي فوافقتُ دون وعي مني على عرضه. من ذا الذي لا يفعل حين يمر أمامه آلبرت آينشتاين واسحاق نيوتن ونيكولا تيسلا وكأنهم أناسٌ عاديون؟ هم حاملون لأوراق يُحتَملُ أن تكون علمية، ويرافقُهم ستيفن هوكينغ، لكن سيرا على قدميه! وأنا الذي أذكر دوما أنه كان مُقعدًا على كرسيّ متحرك بوضعيته المعهودة. لقد فاجأتني مشيته وجسده أكثر مما فاجأتني رؤيته هو نفسه! بل وأنستني تماما في الذين كانوا معه!

تصور معي كمَّ النشوة التي قد تنتاب مُعجبًا بثورات التاريخ حين يبصر أمامه سيمون بوليفار والماهاتما غاندي وآبراهام لينكولن يتناقشون حول طاولة مستديرة عن حتمية حرية

الإنسان، ومدى استعدادهم لفعل أي شيء يكون أخلاقيا يجعل من كل انسان حرًّا طليقا. أو رؤية مُحبٍّ للحكمة أو الفلسفة لاجتماع سقراط وماركوس أوريليوس ونيشته في محاضرة يُناظرون فيها بعضهم البعض حول ماهية الأخلاق وما مدى نسبيتها ومطلقيتها وفعاليتها في المجتمع. إنَّ نفس الأمر يحدث معي للتو، أن يرى أستاذ علوم فيزيائية قامات تاريخ الفيزياء تتمشى أمامه وتتبادل النظريات المتعددة حول الفيزيائيات والكونيات وهم ذوو المعارف المتفرقة نتيجة اختلاف أزمنتهم لهي نشوة لن يستطيع مُعجَبُ الرسم التشكيلي مثلا أن يختبرها. مثلما لن أستطيع أنا نفسي أن أختبر مدى أهمية التقاء ليوناردو دافينشي مثلا مع بابلو بيكاسو وكلود موني أو مايكل آنجيلو مع فينسنت فان غوخ وفريدا كاهلو بنفس القدر الذي قد يفعله رسَّامُ اللوحات التشكيلية ذاك.

رُغم فداحة الذي فعلت إلا أنني إستأذنتُ أسطورتي الموسيقى بالمغادرة كي ألتحق بأساطير الفيزياء من فوري، لكنَّ إذنهم كان على مضض منهم. لأنَّ الموسيقيين بطبعهم راغبون دوما في أن يكونوا السباقين إلى اختلاق الأعذار بغية الانفلات من الآخرين وليس العكس، ربما احساسا منهم بعلو شأنهم فلا يجوز لك أن تُفارقَهُم حتى يفعلوا ذلك بأنفسهم. أعلم جيدا أنني سأندمُ على هذا في الغد وأتمنى أن يظل عرضهم لي بحضور حفل سفيان

بامارت معهم قائما، أنا سأراضيهم بأي طريقة من أجل ذلك. لا أزال وسأزال دائما في حاجة إلى موسيقاهم، خصوصا لحضور حفلاتهم الموسيقية المباشرة، أو لتأمل ملامحهم المنتشية حين يعزف بامارت، مشهد يستحق المشاهدة.

حاولتُ جاهدا أن أكلم السادة الفيزيائيين إلا أنهم بدووا جد منشغلين لدرجة أنهم لم يلقوا بالا لحديثي معهم، ربما لو حدث هذا معي في الحياة السابقة لوجدتني أفور غليانا في داخلي إحساسا بالإهانة واللامبالاة بغض النظر عن الذي كنتُ أخاطب لكن بما أنني قد غُسِلْتُ قبل دخولي إلى هنا من كافة المشاعر السلبية فلم أشعر بأي شيء تحديدا. على العكس تماما وجدتُ نفسي أستغل الفرصة كي أتمشى بجانبهم وأسترق السمع وأحاول التقاط بعضِ من الملحوظات حول الذي كانوا يتناقشون عنه، إلا أنَّ فشلي كان ذريعا بامتياز، مواضيعهم تلك لم تبدُ لي على الإطلاق كالفيزياء التي عرفتها يوما، لقد بدت الأخيرة كألاعيب أطفال صغار أمام الذي كانوا يتفوهون به.

إنَّ الذي أثار إعجابي حولهم هو أنهم رُغمَ انتهاء حيواتهم السابقة ومغادرتهم لكونهم السابق وتواجدهم في نعيم أبدي، إلا أنَّ كل ما سبق ذكره لم يمنعهم من استكمال محاولة فهم مبادئه وقوانينه في كونٍ آخر كالجنة، مع أفضلية أن يكون لهم زادٌ علمي أفضل وولوج أكثر لمعرفة أوضح وأدق وأبعد من الشكوك

والظنون، بإيعازٍ من الإله نفسه. الإله الذي قد يمنحك التلميحات والإشارات والايحاءات الكافية للوصول إلى الحقيقة أو بالأحرى الوصول إليه، ولكنه لن يمنحك أبدا الولوج للحقيقة المطلقة في طرفة عين، لاسيما أنَّ ذلك سيهدم مكونا عظيما من مكونات الإنسان ألا وهو محاولة إشباع الفضول، إنَّ الشخص الذي يفقد فضوله هو شخص فقد القدرة على المعرفة والوصول إلى الحقيقة.

بغض النظر عن كونِ الجهابذة كانوا يناقشون موضوعاتِ علمٍ أخذ جُلَّ وقتي هنالك إن لم يكن كله، فإنني لم أكن مهتما البتة بنظرياتهم لأنها كانت أبعدُ كثيرا عن نطاق فهمي، هي نظرياتٌ تحتاج مني بذل وقت وجهد كبيرين كي أكون قادرا على تقليص الفجوة العملاقة بيني وبينهم. لذا كما كان الحال دوما معنا نحن البشر، فإننا إن لم نستطع فهم الأفكار، حوَّلْنا اهتماماتنا إلى أجساد ومظاهر حاملي وقائلي تلك الأفكار. ربما في الحياة السابقة بنزعة يشوبها تصيد النقائص بغرض التعويض عن شعور النقص فينا، على سبيل "محاولة كسب قيمتنا من خلال الانتقاص من قيمة الآخرين الذين يفوقوننا في أمر نعجزُ فيه عن مواكبتهم". أما حاليا فأنا أرى أجسادهم بدهشة وإعجاب وذهول دون أي نية مضمرة للانتقاص، من الغبي الذي له الجرأة أن ينتقص من هؤلاء أصلا؟!

أدهشني جدا جسد ستيفن هوكينج الفتي، أردتُ بشدة أن ألمسَ أكتافه وبدنهُ كي أتحسس التصحيح الفقري والغضروفي الذي تعرض له، تماما مثلما فعلتُ أنا حين رأيت جسدي الجديد في المرآة. أردتُ أيضا أن ألمسَ شعر آلبرت وشاربه لأنهما كثيرا ما جذبا انتباهي وحتما انتباه الآخرين، وكذلك شعرُ تيسلا المقسوم إلى قسمين ووجنتيه الحادتين. أخيرا وددتُ لو نزعتُ عن السير نيوتن باروكته التي يبدو أنَّه فضل البقاء بها حتى ولو في الجنة، فقط كي أرى كيف كان ليبدو بدونها! غريبٌ أمرُ الإنسان كيف يصبح أحمقا حين لا يفهم شيئا فتتحول اهتماماته إلى توافه الأمور!

يبدو أنني سأترك السادة وشؤونهم ليكملوا ما هم في خضمه وسأذهب أنا لأهتم بشؤوني الخاصة. لكن ماهي شؤوني الخاصة على كل حال؟! أفكر جيدا ولا أرى نفسي فاعلا شيئا! أعلم أنني قد وصلتُ لتوي إلى الجنة وأنني أبدو متسرعا بعض الشيء، لكنني لم أفكر بعدُ في بدء أمرٍ ما مثلما فعل وليام وجوزيف المخرجان أو فريدريك والموسيقيون أو قامات الفيزياء. أعلمُ أنه سيكون ليَ كلُّ الوقت في هذا العالم، لذا علي أن أجد شيئا أنغمسُ فيه كهواية ربما أو كشغف، مثلَ تعلُّم التصوير لأنني لطالما أحببتُ أخذ وضعيات تصوير مختلفة لموضوع واحد، خصوصا أنَّ الجمال في الجنة هنا يساعد على جعل كل شيء يبدو مثاليا. أو

ربما تعلُّم صنع الأفلام الوثائقية أو تأليف الموسيقى والعزف على كل الآلات وتحديدا منها البيانو. وحتى الفيزياء، قد أستطيع استئناف التعلم وإثراء معارفي فيها، فلقد رأيتم لتوكم كيف كنتُ أبدو غبيا منذ قليل رُغمَ أنني كنت أمتهنها كأستاذ جامعي!

انطلقت أمشي وحيدا في أزقة النعيم أنظر يمينا وشمالا وفي أحيانٍ كثيرة في بهاء طلعة السماء، أتأمل في بديع كون الله ومدى جمالية ملكوته ومخلوقاته. أشجارٌ ثمارها يانعة، حيوانات تتحدث لبعضها البعض، هضبات صغيرة متموجة. توجهت بعدها إلى سهلٍ أخضرَ ندي وفسيح يخترقهُ نهر عريض غزير المياه، على ضفافه مقاعد كرومية يجلسُ عليها أناسٌ يجري حولهم ولدانهم ويلعبون في سلام وأمانٍ ضاحكين. بينما أنا في غمرة التأمل تلك ولحظة السلام حتى لفت انتباهي شخصٌ يجلسُ منفردا حاملا لكتاب يقرؤه، يشبه كثيرا كتاب ذكرياتي الذي أخطأتُ في استحضاره أثناء المحاكمة، والذي أعانني على تجاوز اختبار تقبل المصير، غلافٌ أخضر قاتم بخطوط ذهبية مزخرفة. تملكني الفضول لمعرفة دافع هذا الشخص في القراءة رُغمَ أنه ربما مثلي يملكُ شاشة عرض لكل ما دار ويدور في عالمنا السابق، فلِمَ الحاجة إذن لكتاب؟

استأذنتُ الرجل في الجلوس بجانبه، ثم قدّمتُ نفسي إليه واستفسرت عن اسمه، طرحتُ سؤالي عليه دون أن تبدر نبرة التطفل مني حتى لا أظهر بثوب المتدخل في شؤون الآخرين. بدى من كلامه أنه قديمُ عهدٍ بالنعيم وأنه قد مرَّ بالكثير الكثير من التجارب هنا. أما عن سؤالي فقد أجابني أنه أحبَّ القراءة دائما وفضلها في كل مرة على الصوت والصورة، قال أنه كان يمتلكُ مكتبة في منزله ولا يملك تلفازا. استنتجتُ من كلامه أنه لم يتمنَ يوما تلفازا في منزله الأخروي، بل وطال به الأمر إلى محاولة الإطلاع على أخبار أحفاده عن طريق زوجته وأولاده الموجودين معه آنيا في هذا السهل، لوَّح بيده إليهم وبادلوه التحية من بعيد. وكان إن أرادَ معرفة أخبار أحفاده بنفسه قرأ كتابا يمثل كل ما يحدث مِنَ "الحاضر في العالم الأرضي" فتُستَثَارُ مخيلته ويبدو له الأمر حين يقرأ وكأنه يشاهدهم أمام أنظاره، ولربما بجودةٍ أفضل من جودة رؤيتهم في شاشة العرض أو التلفاز، لأنَّ الخيال دوما أجودُ من الواقع.

أما عن الكتاب الذي كان يقرؤه فقد كان كتاب ذكرياته، والذي قال إنه يستحضره في كل مرة يأتي فيها إلى هذا المكان ويجلس فيها بجانب هذا النهر وعلى هذا المقعد بالذات، فقط لكي يستذكر كل شيء جميلٍ حدثَ له في حياته السابقة. خصَّ بالذكر منها ذكرياتٍ مرتبطة بمتنزه في مسقط رأسه تتوسطه بحيرة هادئة يسبح فيها إوز كثير طِوال السنة، كان يتردد عليها في كل مرة تسنح فيها له الفرصة كي يطعم ذاك الإوز ويطالع ما طاب له من الكتب والروايات.

أخبرني بشيء وجدته مثيرا للاهتمام حول أنَّ ملاكا ما قد مر به من قبلُ كي يعرض عليه تحويل كتابه إلى ما أسماهُ "فيلما" مصورا أو عرضا شاملا لكل ما في الكتاب من ذكريات، تماما كما عاشها بالضبط! أي أنك إن لم تكن تهوى القراءة وبدلا عن ذلك تحب المشاهدة، سيتسنى لك إعادة مشاهدة ذكريات حياتك بدلا من قراءتها! فكرة عبقرية حقا! لكنه هو نفسه رفض العرض واستقر على القراءة من الكتاب، يجب أن يكون إيجادُ هذا الملاك أولوية من أولوياتي القادمة.

بينما كانت المحادثات بيننا أنا وخوزي لويس (هذا هو اسمه) تتنامى وتحلو ويُستمتَعُ بها حتى أقبلَ علينا ملاكٌ من أمامنا واستند على المقعد مُميلا نفسه تجاهي:

-السلام عليك يا مصطفى معيوب، هلا تفضلت معي من فضلك، لأمرٍ عائلي يهمك.

-وعليك السلام، وأخيرا يُقبلُ عليَّ ملاكٌ من الأمام، قد سئمتُ أصلا المباغتات من الخلف التي يهويها بنو جنسك. ما هذا الأمر العائلي الذي قد يهمني؟ هل حدث شيءٌ ما لوالداي أو أخواي؟!

-إنَّ لاشيء ذو ضرر قد يحدثُ هنا في الجنة، إنَّ الأمر لا يخص الذين ذكرتهم، بل يخص زوجتك.

-زوجتي! جميلة؟ ما بها؟!

-أبشر، إنها ستلتحق بك عاجلا، هي الآن في طريقها إلى هنا قادمة على متن القطار، رأينا أنك قد تود استقبالها.

-زوجتي قادمة! ولكن متى توفيت؟! لقد رأيتها منذ قليل في شاشة العرض الخاصة بمنزلي وقد كانت مستلقية تشاهد مسلسلا!

-إنَّ الزمن ليس كمثل الذي في عالمكم السابق، هنا قد تُجري محادثة طبيعية مع أحد وتظن أنها بضع كلمات مقتضبة في بضع لحظات قليلة ولكنها تعادل في نفس الأوان شهورا أو ربما أعوامًا كاملة هنالك. لقد مضى من حياتها منذ تلك اللحظة التي شاهدتها مستلقية على الأريكة سبعُ شهور تدهورت فيها صحتها. كانت وفاتها سريعة، هي لم تشعر بالألم إلا ببعضٍ في أيامها الأخيرة.

مباركٌ عليكما اجتماعكما مجددا في النعيم! أراك غير مسرورٍ بعض الشيء، هل أنا مخطئ؟

-الأمر ليس كذلك، طبعا أنا مسرور وسعيد لمجيء زوجتي إلى هذا النعيم، إنني فقط شعرتُ لوهلة بحزن مفاجئ على سماع خبر وفاتها، لم أعتد بعد على أنَّ سماع خبر وفاة شخص ما قد يعود بالسرور على المرء! أمهلني فقط بعض الوقت كي أفهم الذي ما حدث بالضبط. اعذرني إن كنتُ بطيء الاستيعاب ولكن الذي فهمته من كلامك، ألا يعني هذا أنَّ جميع من أعرفهم سيلتحقون بي في أجل قريب؟! الأعوام التي يقضونها هم هنالك ستمر سريعا هنا! أليس كذلك؟

-أجل، فقط إذا نجحوا في اجتياز اختباراتهم التي تعلمُها مسبقا، مثلما فعلت زوجتك للتو. على ذكرها، فإنَّ عليك الذهاب إلى البوابة بأسرع وقت لأنها على وشك الوصول!

-إنَّ زوجتي قادمة إلى هنا! لقد جاءت جميلة! يا للسعادة! شكرا جزيلا لك أيها الملاك على إبلاغي خبرا رائعا كهذا! أستسمحكم عذرا أيها الرفاق، عليَّ أن أستقبلها! إلى اللقاء يا خوزي لويس! تشرفت بمعرفتك يا صديق! سنلتقي لاحقا!

وشرعتُ في الهرولة ثم الجري بسرعة كي لا تفوتني لحظة انفتاح البوابة واستقبال جميلتي، أمَّا خوزي لويس فسمعتهُ

همسا يخبر الملاك مازحا أنني ذكَّرتُه بنفسه حين التحقت به زوجته من قبلُ.
آه كم أنا متشوق لرؤية جميلة مجددا وهي شابة يافعة الجمال.

الفصل السادس

"وَأَزْوَاجِهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ"

الآية 23 – سورة الرعد

وصلتُ إلى البوابة ووجدتُ هنالك شخصان قد سبقاني لانتظار إقبال جميلة. لم أفهم شيئا بادئ الأمر لأنهما فور رؤيتهما لي عانقاني دون سابق انذار، شابٌّ وشابة! خُيّلَ لي أنهما مألوفان لي بعض الشيء ولكنني فشلت في التعرف عليهما بشكل كامل. انتظرتُ إكتمال عناقهما وبُعيدَ ذلك مباشرة أعربا عن أسفهما لأنهما لم يُعرَّفا عن نفسيهما أولا؛ لقد كانا والداي جميلة! صهري وحماتي! أنا سعيدٌ جدا بلقائهما، وهما أيضا يبدوان فرحين للغاية بوجودي، وأنا الذي لم أعرفهما من قبل، لكن يبدو عليهما أنهما يعرفانني جيدا، والذي أعلمه أنا أنَّ جميلة ستُسعدُ كثيرا برؤيتنا جميعا بانتظارها.

هاهي البوابة تُفتح ورباه كم هي جميلةٌ تلك الجميلة! كم اشتقتُ إلى رؤيتها. دمعت عيناي من فوري وهي تخرجُ بلباسها الأبيض وشبابها اليافع وبشرتها النضرة وعيناها الزرقاواتان وشعرها البني الطويل المعقوص في ظفيرة متشابكة. ذكرني منظرها هذا بليلة حفل زفافنا، لقد أقبلتْ عليَّ تماما مثلما هي بصدده الآن. جاءت تجري نحونا وألقت بنفسها في أحضانِ والديها أولا، طبيعيٌ أن يحدث ذلك، أنا لم أشعر بالغيرة أو شيء من هذا القبيل، بل بالسعادة المطلقة وهي تشعر بالارتياح في أحضانهم. لقد كانت تتحدث باستمرار عن شوقها لرؤية والديها اللذان فارقا الحياة مبكرا وتركاها يتيمة لوحدها، كانت تذكرني دائما أنني

ورُغمَ عدم معرفتي لأبي إلا أنني كنتُ محظوظا للغاية بامتلاكِ والدة على عكسها هي. أحسستُ أنني أراها كطفلة صغيرة لأول مرة وأنا الذي عرفتها شابة؛ إنَّ الأمان المطلق الذي يشعر به الإنسان يتجسد في أحضان والديه حين يكونُ طفلا صغيرا، أخبروني إن كان هنالك لحظاتٌ أكثر أمانا منها، أنا أنتظر.

بعد فترة ليست بالقصيرة استدارت حبيبتي نحوي واحتضنتها أنا هاته المرة، لم أترك لها الفرصة لكي تسترجع أنفاسها أو حتى لتتمعن تفاصيل وجهي، سيكون لنا الأبد لفعل ذلك! شعرتُ بدفئها مجددا وملمس شعرها الخفيف ودقات قلبها الحنين وهي تُذيب شرايين قلبي المشتاق إليها. شعرتُ من جديد بجذوة الحب المراهق الأول الذي أحسسته تجاهها في أول مرة رأيتها بها في حياتي، تلك الجذوة الحارقة لك بغرض منحِكَ تلك اللذة السارية في بطنك، التي تجعلك ترتعش وكأنك بصدد الإنتشاء، أو كأنك تُصابُ بنفحة من النفحات الإلهية، فالإله في الأخير هو مصدرُ كل الحب والنشوات والعواطف الجياشة التي تجعلُ من البشري إنسانا.

قرصتني جميلة بعد أن أفاقت هي الأولى من غفوتنا متناسينَ تواجد والديها أمامنا! لقد نسيتُ تماما أنني لا أعرفهما حق المعرفة وأنه لم يسبق لي لقاؤهما من قبل! ولكي أستدركَ خطئي قبَّلتُها على جبهتها وأنا أحمد الله وأشكرهُ على إلحاقها بي في الجنة، لقد

أنقذتني هاته الفعلة المفتعلة من موقف عصيب فعلا! لأننا كنا ولازلنا أولئك الذين يشعرون بالخجل من مناداة الزوج أو الزوجة بالحبيب أو الحبيبة أمام الوالدين أو الأقارب أو الأصدقاء، فضلا عن تبادل الأحضان أو التقبيل، حتى ولو كان على الخد؟! جنونٌ خالص! كنا ولازلنا أولئك الذين يعتقدون أنَّ إظهار الحب تجاه بعضهم البعض أمام طرف ثالث وإن كان ابنك أو ابنتك لهو عارٌ عارٍ من الحياء والعفة ولو خلا من كل شهوة، لكن ضربَ الشريك مظهر من مظاهر الرجولة والفتوة! يا لسخرية القدر.

-السلام عليكم جميعا يا أقرب الناس إلي، لن تستطيعوا تصور حدَّ اشتياقي إليكم، وكم أنا سعيدة كوننا نجحنا في الالتقاء هنا، أنا لا أصدق أننا في النعيم مجتمعون!

-وعليكِ السلام يا أجملَ الجميلات، أعلمُ أننا في غمرة اللحظة والسعادة وأننا نسرقُ لحظتك لتونا، لكننا نملكُ أنا ووالديك مفاجأة لك ستجعلكِ حتما وإيانا أكثرُ سعادةً وسرورا، أليس كذلك؟ (غمزتُ بعيني لوالديَ جميلة كي يجارياني في الأمر)

-آه بالفعل! لقد كدنا أن ننسى تلك المفاجأة الرائعة يا رابح! (يبدو أنَّ حماتي كانت شخصا رائعا في السابق! أستطيع أن أرى الآن ممن استوحت جميلة حسَّ المغامرة وحب عيش اللحظة ومساعدة الآخرين).

-اعذراننا فقط لمهلة قصيرة.

أخذني صهري من ذراعي بعيدا عنهما ثم قال:

يُجدرُ أن تتضمن مفاجأتُكَ شيئا يخص رسول الله، وإلا فإنها ليس ما كنا نخطط له أنا وفهيمة تحديدا! (كما يبدو أنَّ صهري كان شخصا عصبيا بعض الشيء، لا يحب أن تفشل خططه المتوقعة، ومنه أستنتج ممن ورثت جميلة حرصها على تنفيذ خططها بحرفية، وإلا فلن تكون مسرورة بغيرها).

-بالضبط يا عمي رابح، إننا ذاهبون إلى منزل رسول الله، لقد التقيته من قبل وقد ألزمني شخصيا بالقدوم إلى منزله بغرض العشاء والتقاء بعض الأشخاص الذين استفسرته عنهم.

-ولكنه لم يدعُنا نحن! هل ترى هذا مناسبا؟ أن نذهب لمنزل رسول الله وقت العشاء وهو الذي لم يقدم إلينا الدعوة؟

-أنتَ تعلمُ أنَّ محمدا هو كريمٌ ابن كريم يا عم، أتراه الشخص الذي يمتنع عن ضيافة أحد ما بسبب دعوة؟! هو لم يمتنع عن ضيافة الآخرين وقت الحاجة والخصاصة، أتراهُ فاعلا ذلك بهذا المكان الموفور من كل ما لذ وطاب!

-وجهة نظرك سديدة، في أحيانٍ كثيرة أتناسى أننا بالجنة أصلا، لهذا تراني حريصا على عدم إزعاج الآخرين (صفة أخرى من صفات جميلة الموروثة)

عدنا إلى السيدتين وتوجهنا جميعنا إلى منزل رسول الله دون أن تعلم جميلة عن ذلك شيئا، كانت تتبعنا تائهة فحسب. كان صهري وحماتي يسبقاننا ببضع خطوات، الأمر الذي منحَنا أنا وجميلة الفرصة لتبادل بضعِ ملاحظات حول أجسادنا الجديدة، أبديتُ في إحداها إعجابي المعتاد والشديد بظفيرة شعرها المنسدلة، تلك الظفيرة الظاهرةُ أنَّ جميلة قد استحسنتْ استبقاءها هنا في النعيم فقط من أجلي، لعلمها المسبق بولعي اللا مشروط تجاهها. أما عنها فأغدقت عليَّ بعبارات المديح والثناء المتكررة حول شيء واحد فقط، لم يكن ذاك الشيء عضلاتي المفتولة أو طولي المعدل، إنما رائحتي الحديثة! نعم، الرائحة العطرة والبعيدة كلية عن رائحة السجائر الكريهة التي لازمتني طيلة حياتي، والتي أبدت انزعاجها منها وجعلتها تنفر مني في كل مرة حاولت فيها التقرب نحوها أو تقبيلها.

لمحنا ساحة المنزل الأمامية والتي وجدناها عبارةً عن واحة رملية أحاطت بها الكثير من أشجار النخيل الباسقة، لَمْ أعر هاته الواحة اهتماما في المرة الأولى التي أتيت فيها، كنتُ منشغلا أكثر بمعرفة الوجهة التي كنا بصددها أنا وعائلتي. أراها الآن ملآى بطاولات كثيرة وأطباق متنوعة من طعامٍ متعدد الأصناف وأناس كثر لم نتعرف عليهم، لكن شيئا مشتركا كان يجمعهم، نورٌ ساطعٌ على سماهم ومحياهم. وجدناهم جالسين على الموائد مبتسمين

يتحادثون وكأنهم ينتظرون شخصا ما أو ميعادا محددا لبدء تناول الطعام. استغربت جميلة تواجدها في هذا المكان وظنت أننا قد جئنا بها إلى وليمة، لكن فورَ أن مررنا بالساحة كي نبلغ باب المنزل واقترحنا الدخول حتى انفجرت بالبكاء لحظة رؤيتها لرسول الله، لقد حدث معها نفس الذي حدث مع الجميع بالضبط، تركت كل مشاعرها وأحاسيسها المختلطة تنساب خارجها إلى أنْ شعرت بذاك الصفاء والنقاء الذي يعقب لقاء أيًّا كان لمحمد النبي.

بُعيدَ أن انتهى طقس الاغتراف من يديه في نهر الكوثر، دعانا النبي إلى تناول العشاء بما أنَّ الجميع كان ينتظرُ عودته إلى المنزل كي يشرعوا في الأكل، ولحسن حظنا أننا كنا آخر من خرجَ معه من الدار. الأمر الذي أثار اهتمامي قليلا، لِمَ دعى النبي الوليمة ب "العشاء"؟ أليست هذه الكلمة محصورة على تناول طعامٍ في وقتٍ يعقبُ غروب الشمس؟ لكنَّ الشمس لا تزالُ ماكثة بمكانها ذاك الذي لمحتُها به أثناءَ دخولي الجنة، في أقصى الجانب الغربي للسماء. هل لا يزال استخدامُ هاته الكلمة فقط لإعتيادنا السابق على تداولها أثناء اجتماع جمعٍ ما حول مائدة طعام؟ حتى وإن كانت في توقيت مغاير لما عهدناها عليه؟ لا علينا، هذا ليس أمرا يستحق الإهتمام.

لكن أتعلمون الشرف الذي حظينا به فور أن أقبلنا على الواحة؟ إنه شرفُ تناول الطعام مع الرسول الأكرم وحاشيته وأصدقائه ونُظرائه من الأنبياء والرسل على طاولة واحدة! لحظة جنون بحق! بدأ محمدٌ يُعرفُنا عليهم واحدا واحدا ولذهولنا المطبق لم نقوَ على أخذ ولو قضمة من طعامنا، كنا شاردين نتأمل في الحضور فحسب.

إنَّ هذان اللذان يجلسان جنبا إلى جنب مع محمد ابن عبد الله هما عيسى المسيح وأمه مريم العذراء! وهذان موسى النبي وأخوه هارون من يتبادلان الصحون مع يوحنا! ذاكا يوسف وأباه يعقوب اللذان يتضاحكان حول طُرفة أطلقها حسان بن ثابت! وذلك سليمان مع والده داوود، هما يتحاوران بينهما! أترون ذاك؟ إنه عمر بن الخطاب من يجاور ابراهيم وابنيه اسماعيل واسحاق! تلك هي فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين، إنهم يتحدثون إلى آسيا بنت مُزاحم ويحيى بن زكرياء! علي بن أبي طالب يسقي جده ابن عبد المطلب جرة الماء وخديجة بنت خويلد زوجُ محمد تتبادل أطراف الحديث حماتها آمنة بنت وهب وصهرها عبد الله! أسمعُ بلالا بن رباح وهو يلقي السمع لأبي ذر الغفاري وأنس ابن مالك بينما يقترحان عليه توسعةً طفيفة لمساجد الجنة!

لم تكن هاته الأسماءُ هي كلُّ ماهو عليه ذاك الجمع الغفير، كان أبي وأمي وإخوتي هنالك أيضا، وأناسٌ آخرون لم

أعرفهم. لكني لم أستطع كتمان شعوري بالقِزَمِ أمام أولئك العمالقة تحديدا، وحتما لم أقدر على ملئ فمي ولو بملعقة صغيرة من الأكل. كل الذي فعلتهُ هو أنني نهضت عن الطاولة رغم عدم إنهائهم وجباتهم واستأذنتهم في الخروج عن الساحة إلى الواحة قليلا بغية البقاء بمفردي. لقد شعرتُ بغُربةٍ مباغتة، تلك الغربة التي تصيبُ الإنسان حين يشكُّ في مدى ملاءمته لمكانه الجديد أو يتساءل عن مدى أهليته وأحقيته بها. بدأت بالتحدث إلى نفسي بصوت مسموع بعض الشيء: ما الشيء المميز الذي فعلته حتى أحظى بشرف الجلوس بجانب أولئك العظماء؟ هل أنقذتُ نفسا؟ لا. هل ألقيتُ مواعظا؟ لا. هل أطعمتُ جائعا؟ ربما، حتى ولو حدث ذلك فلربما في مرات قليلة، لم أكن مداوما على ذلك. هل عرفتُ الله حق قدره؟ مؤكدٌ لم أفعل. إذن ما الذي شفع لي حتى بلغ بي المقام أن أفوز بهذا المقعد الثقيل؟

-ببساطة لأنك كنت شخصا طيبا يا مصطفى. لقد كان محمدٌّ وناثانيال يتبعان خطواتي دون أدنى دراية مني.

-وهل الطيبة وحدها تكفي يا رسول الله؟

-أوَلمْ تقرأ من قبلُ يا بني قول الله تعالى في كتابه: "إلا من أتى الله بقلب سليم"؟ الطيبة والعطف والحب والرحمة، ضف إليهم

عدم أذية الناس وإبداء العداء والمكابرة علنا مع الله، وهنيئا لك بمفاتيح القلب السليم.

وجدتُ نفسي أتحسس قلبي تلقائيا بيديَ اليمنى وكأنني أتأكد من سلامته فيزيائيا، غبائي فاض كل ربوع الكون، أعلم ذلك. لكن ماذا يفعلُ ناثانيال هنا؟ في النهاية، أنا لن أقوم بمساءلته.

-إنني لم أعتد بعد على كل الذي جرى يا رسول الله، من اللحظة التي توفيتُ فيها إلى هاته التي أحادثك بها حالا. البرزخ الكوني والتراب الوردي وهالات الملائكة وحسهم الساخر والسلالم العملاقة والميزان الضخم والقطار الطائر والخلق المتجلي للأجساد والحيوانات المتكلمة والشخصيات العظيمة التي التقيتها بداية من والداي وزوجتي ووصولا إلى حضرتك. لأصدُقكَ القول، هذا كثير عليَّ، إنَّ الغرابة تلفُّني!

-لستُ أقول هذا كي تزدادا استغرابا أنت وصديقك هذا. ولكن لا يزال لكما الكثير كي تختبرانه، لقد وصلتَما لتوكما، لا تقلقا، شعور الغرابة هذا شيء طبيعي. في النهاية أنتَما لم تزورا بعدُ باقي الجنات الأخرى، هنالك ستريا الأعاجيبَ العُجاب الحقة، والتي لم تخطر على بالكما يوما.

-جنات أخرى؟! عن أي جنات تتحدث يا رسول الله؟ هل تقصد الفردوس وعدن وباقي الدرجات؟ قلتُ أنا بنبرة استغراب.

-حسنا، نوعا ما، هاته الجنات التي ذكرتها هي جنات أرضية بحت، خاصة بسكان كوكب الأرض فحسب. هنالك جناتٌ أخرى يا مصطفى، حتى أنا لم أصدق آينشتاين في بادئ الأمر! أجابني ناثا.

-جناتٌ أخرى؟! آينشتاين؟ ما هذا الذي تهذي به يا ناثا؟ هل تكلمتَ مع آينشتاين!؟ متى التَقيتهُ أصلا؟

-كنتُ مارًّا أستكشف أنحاءً من جنتنا هاته، حتى لمحته على وشك الدخول إلى ما بدى منزله، كان يستعد لأخذ قيلولة، ريثما يعود لإستكمال أبحاثه.

-أنا لم يعطني أي فرصة لتبادل الحديث معه، ولا مع الآخرين.

-ذلك لأنهم كانوا مشغولين فقط، لقد وجدتُه شخصا اجتماعيًّا فعلا، وفكاهي. بعدَ الكثير من محاولاتي للاستفسار منه واستفهام كل ما حدث، وصلنا في إحداها إلى نقطة الجنات الأخرى التي أخبرتنا بها لتوك. هل أستطيع شرحها له أيها الرسول؟ قال ناثا مخاطبا محمدا بغتة بعد أن كان موجها حديثه إلي.

-نعم، يمكنك ذلك يا بني.

-حسنا، سأسردُ الأمر مثلما فعل آلبرت بالحرف الواحد، مع أنني لم أفهم الكثير مما قاله. إنَّ الجنات في الآخرة منقسمة، بعضها خاصٌّ بكوننا، أو فلنقل بكوكبنا الأرض. تعلمُ أنَّ للجنة

الخاصة بنا تصانيف عديدة، أعلاها هي جنة الفردوس، وهاته التي نحنُ بها حاليا هي النعيم. أما البعض الآخر من الجنات فهي الخاصة بالأكوان المتعددة والتي كانت موجودة في عالم الدنيا. أنتَ تُدرك أنَّ خلق الإله ذاك من السماوات والآراضين والكواكب المنتثرة في الفضاء لم يكن لنا لوحدنا، أليس كذلك؟ هاته الجنة التي نحن بها الآن هي إحدى المكافآت الذي وهبنا الله إياها نحن بنو الإنسان، أمَّا الآخرون من مخلوقات الأكوان الأخرى فطبيعيٌّ أن تكون لهم جناتهم التي تخصهم هم لوحدهم، هل فهمت؟ إنهم يقومون هنا بين الفينة والأخرى برحلاتٍ إلى تلك الجنات كي يتعرفوا على مختلف شعوبها وقبائلها ومجتمعاتها ومخلوقاتها لربما سيكون بمقدورنا أن نأخذ إحداها مستقبلا.

-شرحٌ رائع يا ناثا، لقد أحسنَ آلبرت إفهامك فعلا. هل رأيتما كيف أنَّ الله بديع السموات والأراضين؟ قال رسول الله.

-سبحانه، على ذكر الله، هل... (انتابني الصمت)

-ماذا؟

-اعذرني على هذا السؤال أيها النبي ولكن، هل... سنستطيع رؤية الله؟ وإن كان ذلك ممكنا فمتى سيكون؟

-طبعا سيكون ذلك ممكنا، ولكنَّ توقيت حدوثه مرتبط بمشيئته هو وفقط، إن أراد التجلي لكما فهو يعلمُ سبحانه أنكما

قد أضحيتُما "مستعدين" لذلك، لكن كل مرحلة على حدى، أنتما حديثي عهدٍ بالجنة، ستمران أولا على مرحلة استكشاف أعاجيبها، ثم أعاجيب مثيلاتها وفي الأخير أعاجيب الآخرة كلها. تعلمون الذي جرى مع أخي موسى حين طلبَ من الله رؤيته؟

- خرَّ صعقا. قلتُ أنا.

- بالضبط، لِمَ برأيكما؟ لأنه لم يكن "مستعدا" لذلك.

- إنني أشعرُ بتحسن فوري حين أتحدث إليك، أنا أفضل حالا مما كنت عليه منذ قليل.

- الحمد لله، إذن، هل يمكننا العودة إلى الساحة الآن؟ حريٌّ بنا أن نفعل نحن ذلك بدل أن يأتيَ الجميع بحثا عنا! لقد تركناهم بغتة وهو لا يشعرون! (ضحك رسول الله ضحكا لطيفا وهو يجرنا بيديه).

إذن، هذا هو الموت، أو الحياة؟ لو كنت أعلم أنَّ الأمر سيكون على هاته الحال لكانت أمنيتي بالموت هي أكثر أمنيات حياتي طلبا للتحقيق، ولربما أمنيات كل من عاش في ذلك العالم! رباه كم أنا جائع، أرجو فقط أنهم قد أبقوا بعضا من الطعام لأجلي! تريث قليلا يا رسول الله!

-النهاية-